محمد بن ربيع الغامدي

النملة والسكر

الطبعة الثانية

٢٠٢٥

محمد بن ربيع الغامدي

النملة والسكر

قصص قصيرة

الطبعة الثانية

٢٠٢٥

ⓒ محمد بن ربيع الغامدي ، ١٤٤٦هـ

الغامدي ، محمد بن ربيع
النملة والسكر. / محمد بن ربيع الغامدي - ط٢. .- الباحة ،
١٤٤٦هـ
٩٢ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١١٧٨٣
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٥١٢٠-٠

الأغلفة: فكرة وتصميم المصممة رشا عبد الفتاح حسن
تنسيق الصفحات: محمد بن ربيع الغامدي

الطبعة الأولى ٢٠١٨
الطبعة الثانية٢٠٢٥
حقوق الطبع للمؤلف

الإهداء

إلى رفاقه ساعات الصفاء

روّاف حسن

باسل أحمد

أمجد حسن

جياد حسن

كرم رائد

هادي مهند

مع الأمنيات الطيبات الوارفات.

غرفة الجبصين

قلت لزوجتي وأبنائي ونحن على أبواب هجرة عكسية: هل سيأخذكم الحنين يوما إلى هذه المدينة؟ أجابوا كلهم نعم وأنا معهم قلت نعم. هذه مدينة عشت فيها جلّ حياتي وفيها أبْصَرَتْ زوجتي النور وفيها تزوجنا وفيها أنجبنا. تشربت مسامنا ترابها وماءها وهواءها، هي منّا ونحن منها فكيف لا نشتاق إليها إذا تركناها غدا؟ نعم كانت هي مدينة منفى؛ نُفي إليها أبي وعمي. أرغما على الانتقال إليها والعيش فيها، تركوا ديارهم وجاءوا هنا غرباء، فرض عليهم الاستعمار غربة لا يد لهم فيها. فَصَل عيونهم عن وجوه أحبتهم ثم طوّح بهم في هذه المدينة البعيدة عن مدينتنا، أبعدهم عدة عقود بل أبعدهم حتى ماتوا هنا، لكن المُدُن العظيمة تستدني القلوب قبل الأجساد، تجعل من أرضها ومن سمائها بديلا لمدائن سرقها العدو، المُدُن العظيمة تتسع لكل الناس.

قالت لي ابنتي الكبرى: ما تركت زاوية في بيتنا إلا وصوّرتها ولا شارعا في المدينة إلا صورته ولا موضع ذكرى فيها إلا وصورته، قلت لها: والدكان الذي عمل فيه جدّاك أول غربتهما؟ قالت: وهو، ودكانهما الثاني، وبيتهما الأول كل ذلك صوّرته.

قالت زوجتي عندما جاءت سيرة الدكان: دكان أبي وأبيك من أعرق ذكرياتي، رائحته باقية في أنفي وأصوات زبائنه مسجلة في سمعي ومشاهده عالقة بذهني، وعندما كبرت كنت أشاركهما البيع، كنت مثلهما أحسن البيع وأتفهم حاجات الزبائن. تذكرتني زوجتي

فاستدركَتْ: وأنت أيضا، أليس كذلك؟ أجبت: بلى، ثم أضفت منظّرا: ما الذكريات إلا روائح وأصوات ومشاهد.

قالت ابنتي: كنت ســأســألكما ما إذا كان الدكان باق على حاله، هل حالته الآن هي حالته نفسها عندما عمل فيه جدّاي؟ قلت نعم. وقالت زوجتي نعم، لم يتغير فيه شيء.

قال ابني الأوحد: هل سنغادر هذه المدينة ثم لا نعود إليها؟ قلت وأنا أحدق في الغد: قد نعود وقد لا نعود، التفتُّ نحوه وقلت: هذا يتوقف على حالتنا هناك. لم يفهموا شــيئا مما عنيت، زوجتي وأبنائي.

جميعهم ما فهموا شــيئا مما قلت. كانت أعينهم تتنقل بين بعضــهم البعض من جهة وبيني وبينهم من جهة، كأنما كانت عيونهم تستحلب جوابا من الفضــاء الذي يحتوينا في تلك اللحظة. قلت لهم لعلي أجلو الحيرة عنهم: بيتنا هناك مهجور منذ عقود، منذ نفى المســتعمر أبي وعمي، والبيت المهجور يحتاج إلى صــيانة، ونحن رهن تلك الصــيانة، إن طلبت مالا كثيرا بعنا هذا البيت، وإن لم تطلب فقد سلم هذا وسلم ذاك.

قالت ابنتي الصغرى: سنتحرّق شوقا في كل حال، لكن أن بقي هذا البيت لنا فسوف يكون ملاذا آمنا لأشواقنا، نعود إليه كلما جاشــت بنا. ابتســمت زوجتي وهي تقول: وما يدريكم؟ لعل الحياة هناك تأخذنا بالكامل، تملأ فراغات الذاكرة فلا تترك متسعا لذكرياتنا في هذه المدينة ولا تترك حتى خلية واحدة من خلايا الذاكرة يســتقر

فيها هذا البيت. أضـــافت وهي تضـــحك: خاصـــة لو فتحنا غرفة الجبصين هناك وكشفنا أسرارها.

ضَـحِكْتُ أنا وانتبهَتْ في داخلي غرفة الجبصين بعد أن نامت فيه عقودا كاملة. ضـــحكت وقلت: من يســـمع الحديث عن غرفة الجبصين تلك يعتقد أنها غرفة اسرار الفرعون توت عنخ آمون. قلت ذلك وضحكنا جميعنا.

بزغ فضـــول ابني من تحت ركام ضـــحكتنا المجلجلة تلك. قال: غرفة الجبصـــين تلك غرفة حقيقية، موجودة في بيتنا هناك. سمعت جدتي تحدث أمي عنها ذات يوم، كانت آخر كلماتها لأمي: "المرحوم عمّك كان يخبئ فيها شيئا. كان يخبئ فيها سرّا لا يسمح لأحد بأن يراه، المرحومان أبوك وعمك يعرفان السر وما عداهما لا".

أتم ابني عبارته ثم توجه بكامله نحوي: الغرفة مؤكدة يا أبي والســـر مؤكد، لكني لا أدري إن كنت تعرفه أم لا؟ قلت له ولهم: أتذكر غرفة داخل معمل الجبس الذي يعمل فيه أبي وعمي وكان دخول هذه الغرفة محرما إلا عليهما. كنت أنا في بداية المرحلة الابتدائية لم أبلغ التاسعة بعد.

قالت ابنتي الكبرى: صـــبي التاســـعة يدرك ما يرى يا أبي ليتك سألتهما أو ليتك اقتحمت أسوارها. قلت لها ولهم: رأيتها. رأيتها مليئة بالخشـــب والمســـامير. أتذكر أن شـــرطة المحتل قد جاءت وسألت عنها. شاع ذكرها بين الناس، والمحتل عنده حساسية من كل شيء، حساسية السارق المغتصب، لذلك جاءوا.

طلبوا فتحها. فتحها لهم فلم يجدوا سوى الخشب. قال لهم هذه الأخشاب نصنع منها قوالب لصب الجبس، أخشاب مليئة بالمسامير الجارحة، لذلك منعت الدخول إليها، لا يدخلها غيري وغير أخي. طاف العسكر داخلها، قلبوا الخشب، نقلوه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين فلما لم يجدوا شيئا تركونا وانصرفوا. هذا المشهد لا أنساه أبدا.

قالت زوجتي: المرحومتان أمي وأمك أكدتا لي أن سبب نفي زوجيهما إلى هذه المدينة كان بسبب تلك الغرفة. قلت لها كلا، قرار النفي كان بشبهة التعاون مع المقاومة، إيواء المخربين كما يسمون المقاومة آنذاك. قرار النفي قرأته شخصيا، بقي مع أبي وعمي إلى عهد قريب.

قلت لهم وقد مضى الليل: حادثة النفي مضى عليها حتى الان خمسين عاما وتزيد، وأنا قد تجاوزت الستين بسنوات. أمامنا غدا سفر طويل، دعونا نفكر بالسفر وننسى أحداثا وقعت منذ عقود، وبالنسبة لغرفة الجبصين كما تقولون فإنها باقية هناك، يفصل بيننا وبينها أربعة أيام فقط، أربعة أيام نقطع فيها القفار والفيافي فإذا استقرت أقدامنا هناك فتحت لكم غرفة توت عنخ آمون التي شغلت أفكاركم.

دخلت لأنام. ارتميت على فرشة على الأرض فأنا مرهق تماما، أمضيت أكثر من عشرة أيام أرتب للسفر، أتممت اليوم كل شيء وشحنت أثاث البيت لذلك جاءت ليلتنا هذه غير عادية، ليلة

بلا مراتب ولا أغطية ولا وسائد. انقلبت على شقي الأيمن. تذكرت غرفة الجبصين، قلت لنفسي: عائلتي محقة في الاهتمام بها لكني أحاول صرفهم عن التفكير فيها. حاولت الاستسلام للنوم دون جدوى.

عادت هواجس غرفة الجبصين تحلق في سمائي ثانية، قلت في داخلي: لو لم يكن في غرفة الجبصين تلك شيء ما لما جاء العسكر أربع مرات، قلت لهم منذ قليل جاءوا مرة فقط وهي أربع، أربع مداهمات قام بها عسكر المحتل، عسكر متمرّس في البحث والتدقيق والتحرّي، لم يدفعهم لذلك إلا أمر مهم، لكن أبي وعمي كانا أذكى من عسكر العدو.

ملت على ظهري قليلا وقلت في داخلي: لم تكن الأخشاب والمسامير موجودة عندما دخلتها أول مرّة. دخلتها ذات يوم، وأبي وعمي في شغل شاغل مع الجبس. دخلتها بلا هدف وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري، كانت خالية تماما عندما دخلت. ومع ذلك فقد أسرع أبي وعمي نحوي، صاحا بصوت واحد أخرج، لا تدخل.

خرجت بالفعل بعد ان قرصني أبي قرصة كأنها جمرة غضى كاوية. لم يكن في الغرفة أخشاب ولا مسامير، ولم يكن فيها شيئا يخافان عليه. غرفة لا شيء فيها فلماذا خوف أبي وعمي منها ولماذا خوفهما عليها؟

على كل حال تلك أمة قد خلت لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، أمامي سفر طويل وقيادة قارية بعيدة المدى.

أصبح الصباح. كنت أحمل همّ إيقاظهم، لكني فوجئت بهم على مطلع النور شـــهود. تناولت معهم طعاما على عجل، قالت زوجتي بأنّ الطريق عامر بالمطاعم والبقالات والمحطات لذلك أكلنا أكل شبعان. سبقتهم إلى السيارة، أدرت محركها وبقيت في انتظارهم.

تأخروا كثيرا، نظرت باتجاه البيت فإذا بهم جميعا واقفون ببابه، متشـــبثون بحائطه تشـــبث الحجّاج بجدار الكعبة. نزلت من الســيارة وأخذت طريقي نحوهم، صـــرخت: يا إلهي، فيم التصـــاقكم بجدار البيت؟ لم يتحرك منهم أحد وكأنما قد شـــدهم على الحائط ملاط بيد معماري حاذق.

تقدمت نحوهم، شـــرعت في إزاحتهم واحدا بعد الآخر. أزحت ولدي فابنتي الصغرى فالكبرى فزوجتي، رأيت دموعهم تبلل وجوههم والحائط وملابسهم أيضا. تكسّر البكاء في صدري، أشحت بوجهي عنهم مخافة أن يروا أدمعي.

مشينا في طريقنا بأعين دامعة كنا مثل أم أخذوا منها طفلها عنوة. ذكرتهم بالمرحومين أبي وعمي. قلت لهم: خرجا من مدينتهما عنوة، خرجا دون معرفة إلى أين وماذا ينتظرهم ومع ذلك وجدوا حضن مدينة رؤوم.

قلت لهم مهدئا: ســـنعود مرارا وتكرارا فلم البكاء، أبي وعمي كانوا كمن يخرج من داره معصوب العينين ومع ذلك واجهوا أقدارهم

بقلوب مؤمنه. واجهوها بعقول مفتوحة فالإنسان هو الانسان، كائن لا يضيع أبدا إلا إذا رغب هو أن يضيع. الأماكن لا تصنع البشر، بل هم من يصنع الأماكن. تقوم بيننا وبين الأماكن علاقات حميمة، ثم نتركها لتصبح ذكرى جميلة. علاقة تقوم على أنقاض علاقة، ودفتر الذكريات الجميلة تتزايد صفحاته.

توقفت عن الكلام إذ بدا لي أن كلامي قد وصل إليهم كاملا وعادت الحياة إلى داخل السيارة.

سألتْ ابنتي الصغرى عن أمتعة البيت، هل ستسبقنا أم سنسبقها؟ قال أخوها: سيارة النقل انطلقت منذ الأمس، سيارات نقل الأثاث لا تتوقف عادة، لذلك أتوقع وصولهم قبل أن نصل. سمعتْ زوجتي ذلك الحديث، خشيتْ أن تسبقنا سيارة العفش فلا تجدنا وعندها تكون ربكة كبيرة. قلت لها: ليست هناك ربكة أبدا، هاتفهم الجوال معي وهاتفي معهم وما دامت الهواتف النقالة بين أيدينا فلا خوف.

تجاذبنا أطراف الحديث حول الهاتف الجوال، حمدنا له ما يقدم من خدمة للناس، وما يحققه لهم من اطمئنان على أبنائهم وعلى محبيهم في الإقامة والسفر. كلنا كنا نشيد بالهاتف الجوال إلا زوجتي، قالت بأنّه قد أصابنا بالتوتر والقلق. رأت أيضا أنّه قد فصم عرى العلاقة بين الناس، وشغل البنين عن أهلهم وعن مصالحهم. قلت لها: وأزيدك من الشعر بيتا. كثير من حوادث السيارات المهلكة كانت بأسبابه.

وقف أبنائي موقفا محايدا ملأني بهم فخرا. قالت ابنتي الكبرى: هو سلاح ذو حدين. وقال: ابني: كل آلة فيها النفع وفيها الضرر، حتى سكين المطبخ فيها ضرر وفيها نفع. وقالت ابنتي الصغرى دعما لأخيها: والماء أيضا. الماء الذي فيه حياة الكائنات له أضرار لا تخفى على الناس.

قلت لهم خارج إطار حديثنا: بنزين السيارة على وشك النفاذ، فإذا رأيتم محطة وقود فذّكروني بها. عدنا للحديث عن الهاتف الجوال فقالت زوجتي: المسألة ليست مسألة ضرر ونفع. كل آلة فيها ضرر وفيها نفع، لكن المسألة كيف نأخذ المنافع وكيف نتجنب المضار؟ قلت: نحتكم في ذلك إلى العقل. لا يمكن للعقل أن يقود صاحبه إلى الهاوية، وقد سمّوه عقلا لأنه يعقل جماح النفس فلا تتهور ولا تلقي بصاحبها إلى التهلكة.

هذه الفكرة قد استخرجت درّة ثمينة من عمق خزائن ولدي حين قال: سبحان الله العظيم الذي وصف النفس بأنّها أمارة بالسوء. قلت له أرأيت؟ قرار الانسان تتنازعه نفسه وعقله. نفس الانسان تستلذ بأكل السكريات مثلا، لكن عقله يقول له توقف. لو تمكن منك السكري لأعطب فيك كل شيء، كل جهاز فيك تتدنّى كفاءته مع مرض السكر. قالت ابنتي الصغرى حماكم الله جميعا من السكر.

في هذه الأثناء لمحت زوجتي لوحة كأنها ترشد إلى محطة وقود، سألتها: كم يفصل بيننا وبينها من الطريق؟ قالت: لم أنتبه. قلت: لابأس. المسافات عادة بالأمتار ولدينا ما يكفي لمسافات أبعد.

قطعنا مسافة طويلة قبل أن نجد المحطة، وقبل أن نتضجر؛ ظهرت لوحة تقول: محطة بنزين بعد ألف متر. قلت: يبدو أن اللوحة السابقة كانت ثلاثة آلاف متر، قالت زوجتي: يبدو ذلك.

وصلنا المحطة أخيرا، توقفت فيها وطلبت وقودا. خرج كل رفاقي وانتشروا خارج السيارة، كان على هامش المحطة متجرا لبيع المواد الغذائية فتوافدوا إليه. شربت السيارة ماء الحياة حتى ارتوت، فأدرتها وتقدمت نحو المتجر.

لحقت بهم هناك، كان المتجر متوسط الحجم لكنه حوى كل فن. تجولنا في أطرافه، رأيت فيه سلعا كنت أبحث عنها في المدينة فلا أجدها. اشترينا ما نحتاج وخاصة قِنان الماء المبرد، وبعض المعلبات التي تقيم الأود. عدنا جميعنا للسيارة، ركبنا فأدرت محركها وانطلقت تتهادى بنا على اسم الله. تولانا صمت لا يقطعه إلا صوت أكل أو شرب، كنا جوعى وعطشى ولا ملامة علينا في ذلك.

سرنا المسافات الطويلة نتجاذب أطراف الحديث كما يفعل سائر المسافرين. وصلنا إلى ضاحية صغيرة فيها استراحة نظيفة وليست كل استراحات الطريق نظيفة، هذه قد أوصانا بها جارنا الذي يعرف الطريق واستراحاته.

بحثنا عنها باسمها حتى وجدناها، وجدناها نظيفة بالفعل على وصف جارنا الطيب. طلبنا شقة مناسبة آوينا إليها، كان الوقت على آخر النهار فأقمنا حتى صباح اليوم التالي. نمت نوما كافيا وافيا

لكني استيقظت مكسور الخاطر، كان الهمّ باديا على وجهي فأدركت زوجتي ذلك.

اقتربت مني في خفة ولطف ونحن نغادر الاســـتراحة، قالت أراك مكسور الخاطر ما بك؟ قلت وأنا أخبئ عنها الواقع: حالة حزن عابرة ستنجلي في الطريق، تذكرت أبي وعمي وأمي وخالتي.

قبلت مني زوجتي ما قلت، لكني في واقع الأمر رأيت رؤيا قلقت لها كثيرا. رأيت كأن زوجتي وأبنائي نائمون على حمادة صخرية في قلب الصحراء، ورأيت أني أدور عليهم أنضحهم بالماء المثلّج ليستيقظوا. وقد فسرته بان السيارة ستنقلب بهم وسوف يموتون وأنجو أنا وحدي.

وجدت أنّه ليس من الحكمة في شيء أن أخبرهم، لذلك كذبت على زوجتي. قلت في نفسي لا بد أن أعقل وأتوكل، سأقود السيارة بهدوء وحذر ولن نغير من أمر الله شيئا إذا أمر. عقدت العزم على مقاومة الانكسار، وعلى دفن الهم في صدري حتى لا يراه أحد على وجهي، ثم ركبنا ســـيارتنا على اســـم الله وانطلقنا في آخر مراحل الطريق الذي قسمناه على مرحلتين.

اقترحت عليهم أن نصـــدح بالغناء. فقد أدركت في قرارة نفسي أنّه الحل الأمثل لانقشاع الغيم من على وجهي، وفيه أيضا تطمين لزوجتي، فلربما أنّها لم تقتنع في قرارة نفســـها بما قلت. اقترحت ذلك، لكني أعطيتهم مطلق الحرية في المشـــاركة. من كان مزاجه عاليا فليشارك، ومن كان تحت تأثير النوم فلينم.

قلت ذلك ثم أضفت موضحا خطة الغناء: سأغني منفردا وعند الإعادة نغني سـويا. وهكذا قلت: طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع، وجب الشـــكر علينا ما دعا لله داع. أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع، جئت شـــرّفت المدينة مرحبا يا خير داعي. وما أن أتممت دوري حتى رددوا ورددت معهم هذه الأغنية الأثيرة عندنا جميعا.

وصـــــلنا أطراف مدينتنا الأم. مدينتنا التي تحررت من ربقة المحتل، خيّل إليّ أن تلك العمائر والمآذن قد رأيتها من قبل، وعندما أخبرتهم عن إحسـاسـي هذا قالت زوجتي: لعلها روحك كانت تغادر جسـدك أثناء النوم، فتأتي لتطوف على هذه المدينة التي فيها نيطت عليك تمائمك.

كان كلامها مقبولا عندي فأنا لست ماديا، أدرك أن في الحياة ما هو أبعد من أن يقاس بمســاطر مادية. لم نشــأ أن ننشــغل عن تملّي مدينتنا الأم. كنا نتمهل إذا راق لنا التمهل لكن اقتراب الليل لم يسـمح لأنفسـنا بما تشـتهي. اتفقنا على النزول في أول فندق نقابله في طريقنا، ونحن محقّون في ذلك. بيتنا مهجور منذ نصف قرن إلا قليلا، ثم أنّه لا أحد منا يعرف مكانه على وجه الدقة.

طابت لنا الإقامة في الفندق الذي يتوسط المدينة كما علمنا، ومنه بدأت التواصـل مع ابن خالي. ابن الخال هذا قريب من سـنّي وهو همزة الوصـــل الوحيدة بيننا وبين مدينتنا الأم. كان مفتاح بيتنا أمانة عند أبيه، فلما مات انتقلت الأمانة إليه. فرح كثيرا بوصـــولنا

وضــربنا بيننا موعدا في غداة الغد، نلتقي ثم نعاين بيتنا ســويا. بتنا ليلتنا تلك في الفندق.

قضــينا شــطرا منها في شــبابيكه المطلة على مدينتنا الأم من علٍ. كنت أنا الوحيد الذي أشعر ببعض الحنين إلى هذه المدينة أما البقيـة فلا، لا أحد منهم يحنّ إليها فليس لهم فيها من حياة أبدا. كانوا مثل موظفين جدد جرى تعيينهم في مدينة أخرى، أقبلوا عليها وقبلوا بها نزولا عند لقمة العيش التي لا تجامل.

خرجت مع ابن خـالي في ضـــحى اليوم التـالي. أخـذني بســـيارته حتى وقف ووقفت معه أمام باب البيت، ســـألني إن كان الباب باق في ذاكرتي قلت له نعم. الباب باق، والبيت باق، وحتى الشـــارع المؤدي إليه لم يتغير كثيرا. دخلنا البيت فتفتحت أكمام ذاكرتي كما تتفتح أكمام زهرة، ما شـــعرت أن غيابي عن جنباته قد بلغت نصف القرن، كل شيء كان في مكانه كما وسمته عيني قبل النفي.

كان البيت نظيفا وإن بدت حجراته أصغر مما كان، لكنه قابل للسكنى ولو شئنا لنزلنا فيه الآن. رأيت أن أجدد دهاناته وأرمم بعض عيوبـه، غير أني قررت أن أفتح غرفـة الجبصـــين أمـام زوجتي وأولادي ليعرفوا أنها غرفة خاوية ليس فيها الا الغبار.

أرسـلت موقع البيت لولدي. قلت له أن يأخذ سـيارتي وبقية أهلي ويأتي.

هؤلاء الشباب أقدر وأسرع في فهم تقنيات العصر. ماهي إلا دقائق حتى وصلوا ودخلوا معي إلى قلب البيت. نشبت عبرة في حلق زوجتي، بررت ضعفها الإنساني ذلك بأنّها تجد رائحة أبيها وأبي وأمها وأمي. قلت لهم البيت نظيف لكننا سنجدد دهاناته ونرمم ما هرم منه ثم نسكن. أضفت: والان سنذهب سويا إلى غرفة الجبصين. إلى غرفة الأسرار والكنوز، كنوز الفرعون توت عنخ آمون.

ذهبنا للغرفة. وقفنا أمام بابها، تحسسنا قفلها الكبير الذي لا مفتاح له، هويت عليه بمطرقة ثقيلة فانكسر ودخلنا. دخلنا فوجدنا فيها بضعة ألواح من الخشب ولا شيء غير ذلك سوى الغبار، تركناها للغبار وخرجنا.

لاحظت ابنتي الكبرى ملاحظة غيّرت قناعاتي كلها بعد ذلك. ملاحظات غابت حتى عن عسكر الاحتلال في مداهماتهم لغرفة الجبصين هذه. قالت بعد أن رأت جدار الغرفة المطل على الفناء: طول هذا الحائط لا يناسب عمق الغرفة يا أبي، قلت لها: كيف؟ لم أفهم. فتحنا باب الغرفة ثانية. وقفت عند صدر الغرفة وشرعت تشرح لي الفكرة.

تحققت من الأمر. دخلت الغرفة ثم خرجت وعاينت الجدار، تأكد لي صواب ما قالت، بل ذكاء ما وصلت إليه. غرفة الأخشاب تشغل ثلثي الغرفة بينما الثلث الباقي محجوب عنّا، الجدار الذي في

صـــــدر الغرفة يحجب عنا ذلك الثلث الباقي، لو أزلنا ذلك الجدار لظهرت لنا بقية الغرفة.

قررنا كســـبا للوقت وتوفيرا للجهد أن نفتح ثقبا واســـعا في الحائط بدلا من هدمه. شـــرعنا في تنفيذ الفكرة وفتحنا الثقب، أخذ الحائط يتهاوى شـيئا فشـيئا ثم سـقطت كتلة كبيرة منه دفعة واحدة. تراجعنا للخلف حفاظا على سلامتنا.

حاولنا رؤية أي شـــي، لكن كثافة الغبار والظُلمة ما ســـمحا بذلك. انتظرنا أن ينقشع الغبار.

بدأ الغبار ينجلي ليشـــفّ عن منظر هالنا تماما. عشـــرات الوجوه التي صُـــنعتْ من الجبس، وجوه لرجال ونســـاء تمتلئ بها الغرفة.

سـكن الغبار فدخلنا. فتحنا مصـابيح هواتفنا، سـرت فينا رعدة لمنظر الوجوه، وجوه مشـــرقة تنبض بالحياة رغم أنها من الجبس. ثلاثون رجلا وتسـع نسـاء وطفل واحد كلهم من أبناء المدينة، تحت كل وجه اسم صاحبه وتاريخ استشهاده.

ليلة القبض على شيطاني

أتينا- زوجتي وأنا- على صحن المكسرات بكامله. صحن مكسرات كان فيه ما يزيد على ثلاثة أرطال، ثلاثة أرطال من مكسرات مختلفة ألوانها. قلت لها سنندم كثيرا على فعلتنا هذه حيث لا ينفع ندم. أكلنا أكلا مريعا وهذا معناه متاعب جمّة، متاعب في الهضم وعاقبة سيئة في الوزن. قلت لها أيضا: وا زوجتاه! أصبح وزنك لا يطاق وقد حان الوقت لرجيم قاسٍ. أنت جديرة بجسم ناحل رشيق، فلم تسجنين روحك داخل هذه الكتلة الهائلة من اللحم؟.

قالت - في إصرار عجيب - وكأن كلامي قد استفز فيها شيئا: ولو تحولتُ إلى حوت أزرق فلن أتبع أي رجيم، لا قاسٍ ولا ليّن. لا يتسع البيت لنحيلين، يكفي بيتنا السعيد أن تكون أنت نحيله الأوحد. ثم أضافت: ونكاية باقتراحك وا بعلي العزيز فسوف أحضر صحنا آخر من المكسرات، نتسلى عليه الآن ومن بعدنا الطوفان.

منذ سنوات لم يعد في بيتنا الصغير أحد سواي وسواها. زوجّنا بناتنا، كل واحدة منهن علّقناها في رقبة رجل طار بها بعيدا. وأولادنا كبروا وتزوجوا وأنجبوا، أصبحوا آباء، لكل واحد منهم أسرته وغادرونا إلى عالمهم الخاص. خليَ الجو لنا وأصبح وقتنا طويلا، تشرق شمس يومنا ثم لا تغرب إلا بعد نهار طويل، وتغرب شمس يومنا ثم لا تشرق إلا بعد ليل طويل. استدار الكون ليهبنا المزيد من الوقت، المزيد من الفراغ. نطوف أرجاء المدينة، نتابع القنوات الفضائية، نأكل وننام ويبقى عندنا الكثير من الوقت. أتخوف كثيرا من العواقب. أخشى أن نترهل وتنفخنا الدهون ثم لا يقدر الواحد منا

على دخول الحمّام، وعندها نصـــبح عالة على أبنائنا وبناتنا. بت أســيرا عند زوجة لا تشــبع من الطعام، وســوف تنتقل العدوى لي فأصبح حوتا أزرق مثلها.

جاءت بالصـــحن الآخر من المكســرات وفيه رطلين منها، جاءت أيضا بكوبين من القهوة الإيطالية. قلت لها هذا انتحار يا أمة الله، كفانا مكسرات. قالت: رمضان كريم، هذه ليالي رمضان، ليالي رمضــان تطلب شــأيا وقهوة مشـفوعين بما يتيسـر من المكسـرات. ضَــحِكَتْ وضَــحِكْتُ. قلت لها: ليالي رمضــان تطلب قياما وأورادا وأدعية، فيها ليلة القدر خير من ألف شهر. ثم سألتها: ماذا أعددت لليالي رمضــان؟ قالت مازحة: هذه المكسـرات. قلت لها سـتدخلين النار يا حوتي الأزرق، انتفضت مثل دبّ أذلقته قرصة نحلة، قالت: أتق الله يا رجل، إنما كنت أمزح، وربك غافر الذنب وقابل التوب. قلت وأنا أرشف القهوة: وأنا أيضا أمزح. أمزح في مسألة النار لأنها بيد الله وحده، لكني لا أمزح في مسألة السمنة، ولا أمزح في مسألة المكسـرات. لا بد من خطة يا بعلتي، خطة نواجه بها غزو السـمنة والترهل.

قلت لها- اختبر أمنياتها- لو كانت هذه الليلة هي ليلة القدر، ورفعتِ كفّكِ إلى السماء، ما لذي ستطلبينه فيها؟ قالت وكأنها تتعمد إغاظتي: كيســا من المكســرات! وأنت ماذا ســتطلب وكفك مرفوعة للسـماء؟ التزمت الجد فأنا جاد في سـؤالي وقلت: يا له من مزاح لا طائل من ورائه.

أقسمت لها أنني جاد تماما، أريد أن نطلب الله في هذه الليلة شيئا نافعا. ثم أضفت: ما يدرينا لعلها ليلة القدر ونحن لا نعلم. بدت لي زوجتي جادة في هذه المرة. يبدو أن رسالتي قد لامست سويداء قلبها. قالت: لن أطلب أكثر مما طلبت السيدة عائشة رضي الله عنها. سألتها وقد نسيت ذلك بالفعل: وما الذي طلبت؟ أجابت: قالت اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني. ثم أضافت: لو كان هناك دعاء أفضل منه لدلها عليه الرسول، أليست زوجته؟

سألتني بدورها: ها قد أخبرتك عن طلبي، وأنت ماذا عنك؟ ما الذي ستطلبه؟ سكتُّ هنيهة لأني تراجعت عما في خاطري. كنت سأقول أتمنى أن أراكِ نحيلة لكني غيّرت، مع نوبة الجديّة التي ورطت نفسي فيها، غيّرت ما نويت عليه فقلت: عندي رغبة تشكلت في أعماقي منذ سنتين. كنت أتردد في الحديث عنها، كم أتمنى لو استجاب الله لي وسلّمني شيطاني في يدي. أمزقه تمزيقا، أخنقه خنقا حتى تجحظ عيناه ويتدلى لسانه وتَّشَل رئتيه فيموت فلا يغويني شيطان بعدها. فغرت زوجتي فاها، قالت يا لك من عبدٍ طماع، تقتل شيطانك ثم تركب رأسك بعدها. ضَحِكَتْ عميقا ثم قالت: إن دعوت بهذا فقل: شيطاني وشيطان زوجتي، لا تنساني يا رجل.

مطّت ظهرها مثل قطة أضناها السهر، ثم استأذنت في بعض النوم حتى موعد السحور. كنت أُقدِّر جهدها الذي تبذله في المطبخ طيلة النهار وهي صائمة، ولذلك أبتهج إذا وَجَدَتْ وقتا للراحة. قلت بيني وبين نفسي: لو تقبل كلامي لتوقفت عن شقاء المطبخ. تطبخ

أصـــنافا كثيرة ولا نأكل إلا أقل القليل، لكنها لا تســمع كلامي أبدا. يبدو أن الطبخ عند النساء حالة من حالات الإدمان.

قلت لها: نوما هانئا يا عزيزتي، لن أنساك من الدعاء، القبض على شـيطاني وشـيطانك. عندي أمل كبير أنهما سـيقعان في هذه اليد فلا تقلقي. ضحكنا سويا وانصرفَتْ بينما بقيت وحيدا.

ذهبت إلى مكتبتي. انشـــغلت أولا بجهازي المحمول، أزور عدة مواقع بشـكل منتظم. فتحت الجهاز وبدأت بالبريد الإليكتروني، فتشـــت في جنباته عن شـــيء ما فلم أجد. انتقلت إلى فيس بوك، وجدت الكثير من طلبات الصـداقة، قبلت شـيئا وتجاوزت أشـياء. بحثت في قوقل وفي مواقع شتى ثم غادرت الجهاز. تناولت صحيفة وجدتها قديمة فعفوت عنها، اخترت كتابا في أساطير الشرق وغبت معه.

أحببت الأساطير منذ حين. أحببت الحكايات الشعبية أيضا، كنت أســـميها ذاكرة الفواجع المنســـية. خيّل لي أن الأســـاطير والحكايات تنطوي على فواجع مرّت بالناس، زلازل وبراكين وانهيارات أرضـية عنيفة وفيضـانات وكوارث شـتى. تلك الكوارث لم تمرّ دون أن تشـوي القلوب، دون أن تغرس في نفوسـهم فواجع مُريعة، فواجع حالت بين أم ورضـــيعها، بين أب وعائلته، بين أقوام وأقوام، أبدلتهم أرضا غير أرضهم وسماء غير سمائهم.

تذكرت آلهة اليونان. تذكرت الجن والعفاريت أيضا، تذكرت الشياطين، شياطين الإنس وشياطين الجن، تذكرت شيطاني وشيطان زوجتي، تذكرت الدعاء.

ابتسمت ثم نهضت نحو النافذة، نافذة المكتبة التي لا نغلقها إلا عند هطول المطر. تعلقت بقضبانها، تأملت الليل والنجوم، رأيت الثريّا والدبران الأحمر وكوكبة الجبار. رأيت الشّعرى تلاحق الجبار والدبران والثريا وقد مالا جميعا للغروب.

قلت في نفسي: ما أعظمك يا ألله وما أضعفني. ما أضعفنا جميعا تحت رحمتك، وما أقوانا بك يا رب. كنت على يقين أن الله مطلّعٌ على سّري ونجواي، وكنت على يقين أنه عالم بما في ضميري. قلت: قد عرف الله ما أريد، وهو أقرب إليّ من حبل الوريد. إن رضي عني فلسوف يمكن يدي هذه من شيطاني ومن شيطان زوجتي، الليلة أو غدا أو بعد غد أو في أي لحظة يقدرها، وإن لم يرض عنّي فعليّ أن أراجع نفسي.

عدت إلى مكتبي. شغّلت حاسوبي، غبت معه بعض الوقت، أتنقل بين بساتينه الكثيرة، أغلقته وانتقلت بي النفس إلى الكتب. تخيّرت كتابا في أمثال العرب وغبت بين صفحاته، غبت طويلا فأمثال العرب حافلة بالعظات والعبر. إنها قصص قصيرة جدا، فيها من التكثيف والتخييل والكشف ما في قصص اليوم. هي كما قالوا تجربة الواحد وفطنة المجموع.

في هذه الأثناء حدث أمر لم يكن في الحسبان، أمر لم يستوعبه عقلي حتى الآن. ثلاث سنين مضت على تلك الحادثة ولم أتبين كيف أضاءت وكيف انطفت. أعلم علم اليقين بأن الله لطيف خبير، حيٌّ قيّوم، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض. لو لم أكن على يقين من رحمته ما توجهت إليه الليلة بفؤادي وقلبي، عقلي يستوعب رحمة الله لكنه لا يستوعب كيف حدث ما حدث وأنا العبد اللاهي، لست من العبّاد ولا من الزهاد فمن أنا حتى ينالني كل ذلك العطاء؟

كنت قد قطعت صفحات في جمهرة أمثال العرب، غبت معها تماما. أقلقني صوت رفرفة طائر، لم ينتزعني من الكتاب في أول الأمر، لكنه زاد رفرفة فرفعت رأسي، رفعت رأسي أفتش عن مكان الصوت، رأيت عصفورين صغيرين يحلقان مثل الطنّان.

أغلقت الكتاب تاركا سبابتي بين دفتيه، تسمّرت أراقب وفي قلبي حديث خوف. عصافير في الليل؟ سألت نفسي. لا تخرج العصافير في الليل، لا تترك أعشاشها إلا تحت ضوء النهار. تذكرت أبي عندما أوصاني بتجنب الطيور ليلا، أكدّ لي يومها أن كل طائر يطير في الليل فهو من الجن. قلت: بسم الله الرحمن الرحيم.

وقع العصفوران على قضبان النافذة، كل عصفور على قضيب. سكنا وتوقفا عن الرفيف، ولم أتوقف عن الدهشة والشك والقلق. سألت نفسي: هل فقدت الطيور ساعاتها البيولوجية تحت

وطأة الضـــجيج الذي لا ينقطع، وتحت غياب الليل خلف أعمدة النور؟ لقد ضــرب الإنســان جِرْوَتَه على هذه الفوضـــى فهل فعلتها الطيور أيضا؟

تحت هذا الترقب أخرجت ســـبابتي من بين دفتي الكتاب ووضعته جانبا. هذه لحظات مريبة وحاسمة أيضا ولابد أن تلتصق عيناي بالعصفورين، أرى كل أفعالهما فلا يغيب عني منها شيئا.

دخل العصــفوران في مبادرة منهما غير محســوبة، دخلا إلى قلب مكتبي. شرعا في تحليق عشوائي قلق، كل عصفور في اتجاه. فاجأني عصـــفور منهما بالوقوف على حافة اللاب توب، حافة شاشته بالضبط. وخلال ثوان لحق به الثاني، حتى تجاورا على حافّة الشاشة. أمسكت بالعصفورين وأنا أُسَمِّي باسم الحيّ القيوم الذي لا تأخذه سِنَة ولا نوم، توجهت صوب النافذة وطوّحت بهما خارجا.

عادا للنافذة لهما شقشقة ورفيف. استقرا على قضبانها، اقتربت منهما، خالطني بعض الخوف عندما رأيت أعينهما مصــوبة نحوي. تسمرت عيناي فيهما، وتسمرا في عيني، أحدق فيهما ويحدقان فيّ.

بدا عليهما الوجل وكنت أيضـــا في حال لا أُحســـد عليه من الوجل. أغلقت باب النافذة فرأيت منقاريهما وسـمعت صـوت نقرهما على الزجاج من الخارج. راجعت نفسي وفتحت الباب، ما إن فتحت الباب حتى اندفعا كأنهما من زبائن مطعم البيك عندما يســـتأنف الخدمة بعد التوقف للصـــلاة. حلقا فوق رأســـي تماما، نزعت عقالي وقلت لهما: هِشّ.

تشـتت شـملهما فَزَعَا من هذه الحركة العشـوائية. طارا إلى الأعلى كأنما قذف بهما لغم أرضـــي، ومثل أوراق في مهب الريح افترقا. افترقا في داخل مكتبي، كل عصفور في مكان. هبط أحدهما على حافة المحمول، حافة شـاشـته بالضـبط مثل المرة السـابقة، وخلال ثوان لحق به الثاني حتى تجاورا على حافّة الشاشة.

اقتربت منهما ونفخت نفخة من فمي. طارا من على الشـاشـة، حلقا تحليقا مضطربا في أرجاء الغرفة. قررت الإمساك بهما وقذفهما من النافذة ثم إغلاقها فلا يعودان أبدا. قفزت نحو أقربهما ليديّ لكنه نفذ مني، حاولت الإمساك بأخيه فلم أنجح. شرعت ألاحقهما في كل زاويـة حتى صـــرت مثل كلب الجراد. كلب الجراد يطـارد الجراد المتكاثر حوله ثم لا يصيد منه شيئا.

عدت إلى مكتبي وأنا ألهث. خذلتني لياقتي وبت أرى الأنجم تتهاوى فوق رأسـي، وقبل أن أسـترد عافيتي عادا نحو مكاني ثانية. قلت لنفسي: الحرب خدعة. سأتشاغل عنهما إلى أن يقتربا كثيرا من يدي ثم أفاجئهما بقبضـــة من حديد. هدأْتُ فهدأ المكان فجاءا إلى شـاشـتهما الأثيرة. امسـت شـاشـة محمولي فننا رطيبا يحلو لهما الوقوف عليه.

وقف الأول ثم تبعه الثاني، لم أحرك ساكنا ولم أسكن متحركا ليطمئنا فأطبق عليهما. عندما تسـمرت أعينهم في عيني مددت يديّ وأمسكت بهما، أمسكت بهما برفق ولكن بثبات مكين. نهضت وهما في يديّ، في كل يد عصـفور منهما. وقفت أمام النافذة وقذفت بهما

بعيدا، فوجئت بهواء قوي يعيدهما نحوي، بل أعادهما إلى داخل الغرفة فأسقط في يدي.

قلت لنفسي وقد عادا للغرفة ثانية: لا جدوى من ملاحقتهما، سأشتري لهما قفصا جميلا واحتفظ بهما.

أنا وللحق لا أحب حبس أحد، لا أصـــادر حرية أحد، حتى ولوكان عصفورا أو حتى نملة تدب تحت الأقدام. لكن هذين قد جاءا بمحض إرادتهما، وفوق ذلك سعيت في إطلاقهما عدة مرات، وأصرّا على الأسر.

عدت إلى مكتبي وجلســت. اقتربا مني ثانية، اقتربا كثيرا وأنا أقرا آية الكرســي همســا. هبطا في خطوة مفاجئة مذهلة على يدي اليمنى، تحجّرت يمناي وعقدت الدهشة تفكيري. وفي ليلة الأعاجيب هذه شرعا ينقران على ابهام يدي اليمنى، فتحت يدي على غير إرادة مني، قفزا في الهواء ثم هبطا في بطن راحتي.

يمناي مبســوطة في راحتها طائران وفي داخلي الوجل، احتجتُ لحُوْتِيَ الأزرق فالأمر مخيف، لكني آليت على نفســي ألا أوقظها إلا على وقتها. كان العصفوران على قدر كبير من الصحة والجمال لم تشــبع عيناهما الخضــراوان من النظر إليّ، لكنهما كانا مستسلمين ساكنين تماما في راحة يدي كأنهما ينتظران قدرا مقدورا.

ســألتهما: أجنيان أنتما أم شـيطانان؟ كادت أن تقفز عيني من علبتها عندما جاء ذكر الشياطين، طرأت عليّ فكرة جعلتني انتفض،

فكرة اقتحمت رأســـي فكنت مثل نائم قد اســـتيقظ للتو. قلت هما شيطانان بالفعل ولا شيء غير ذلك.

ثنيت ظهري حتى احدودب، انحنيت فوقهما اســـألهما: أأنتما شـيطانان؟ لعل أحدكما شـيطاني والآخر شـيطان زوجتي، شـيطاني وشـيطانها في قبضــة يدي هذا فضــل من الله. قلت ذلك ثم أحْكمتُ قبضـتي عليهما. نقلت أحدهما في يسراي إمعانا في السيطرة، قررت نزع رأسيهما شدّا من غير سكين. تراجعت، رأيت أن تحضر زوجتي الحفلة. نهضـــت وتحركت بعيدا عن مكتبي وكأني أبحث عن فكرة ما، توجهت صوب النافذة، وقفت أمامها وفي قلبي شكر لله.

راقت لي فكرة ترك المكتب إلى المطبخ. خرجت وهما في قبضة يدي، جلست على مقعد هناك وهما أسيران في يدي ينتظرهما مصير معلوم. تعبت يدي من بقائها مشدودة قابضة، قلت سأضعهما على الطاولة، وأكفي عليهما اناء ثقيلا. فكّرت في المهراس الذي كنا ندقُّ فيه البن فهو من ســبيكة الصــفر الثقيلة. تذكرت أنه بعيد جدا الان، فمنذ اســـتأنســـنا المطحنة الكهربائية هجرناه ثم ألقينا به في غياهب المخزن.

وقعت عيني على قدر الضـغط، هو ثقيل أيضـا، مسـبوك من سبائك الألمنيوم المصـفحة. جمعت الشـيطانين في قبضـتي اليسرى وتحركت نحو القدر الكـاتم. مـددت يـدي، أنزلتـه من على الرفّ، عدت للطاولة وكفيته على فمه فوق سطحها.

أولجت الشـيطانين تحته، أخرجت قلمي ووضـعته بين حافة القدر وسـطح الطاولة، قلت أترك لهما فتحة تهوية ثم فتحت نافذة المطبخ زيادة في الاحتياط.

كنت بحاجة إلى حمام دافئ أَلِفْتُه في مثل هذه السـاعة من كل ليلة، سـرت على ذلك منذ بداية شـهر رمضـان. خشـيت أن يشغلني الحمام عن الشيطانين، قد تستيقظ زوجتي قبل موعدها لأي سـبب، فإذا حدث ذلك ودخلت المطبخ فلن تقبل بالقدر مكفيا على وجهـه فوق الطـاولـة. المطبخ مملكـة المرأة التي لا تقبـل عليهـا مساومة، سوف تلتقط القدر وتعيده إلى الرفّ فتفلت من أيدينا فرصة اعدام شيطانينا.

فكرت في حلّ فقلت لنفسي أكتب تنبيها. كتبت على قصاصة ورق: شـيطانانا تحت القدر، الرجاء عدم تحريك القدر نهائيا إلا بوجودي. وضعت القصاصة فوق القدر وانصرفت. خالجني شعور ايماني جارف، قبل الحمام وأثناء الحمام وبعده. شـعرت بأن وزنا ثقيلا كان على كاهلي قد أُزيح، وأن قيدا كان يكبل يديّ وقدميّ قد انفك، وأن غشاوة كانت على عيني قد انجلت، وغلالة سوداء تحجب روحي قد انحسرت. هذا الشعور أكد لي أكثر من أي وقت آخر أن شـيطاني هو الآن تحت القدر، بقي عليّ أن أذبحه فأعيش بقية عمري هانئا من غير شيطان.

عدت إلى المطبخ وأنا قلق على القدر. دَخَلَتْ عيني قبل رجلي، ودخل قلبي قبل أن أدخل. وجدت القدر في موضـعه على

الطاولة، اطمأن قلبي. انحنيت، وضعت خدي الأيسر على سطح الطاولة، نظرت من خلال فتحة التهوية، كان شيطاني وشيطان زوجتي في مكانهما تحت القدر.

جلست مطمئنا على المقعد، أعد الدقائق والثواني في انتظار حوتي الأزرق. أعرف مزاجها تحب مخالفتي دائما، ستقول لي أطلق العصافير وأترك عنك الهراء. زوجتي عندها نزعة مادية في بعض الأحايين وهذا يقتضي مني جهدا مضاعفا. أن تقنع إنسانا ماديا بما حدث هذا إنجاز.

رأيت من المناسب تماما أن أستعين بمكتبتي، أو أن استنجد بجدو قوقل لعلي أجد خبرا أو أجد تجربة إنسانية تشبه تجربتي هذه. لعل هناك سابقة ما، قبض فيها أحدهم على شيطانه. خرجت من المطبخ إلى مكتبي، بدأت بالمحمول أولا، المحمول حيث يقبع جدو قوقل في عمق حناياه.

عدت من المكتبة بخفيّ حنين. لم أجد شيئا، لم أجد معلومة واحدة تعضد رأيي، ساعتان أمضيتهما مع الخائب قوقل دون فائدة، لكني لن أعدم التصرف. احتطت بصفحة كاملة دونت فيها وقائع مشابهة، وقائع ليست في الكتب، ولا يعلم عنها قوقل، لا أحد يعرفها سواي لأنها لم تحدث، ماهي إلا معلومات ملفقة، أكاذيب أراها في حكم الكذب الأبيض، وهناك من أجاز الكذب على الزوجات.

كتبت معلومة ملفقة تقول: كانت قبائل الأزتك تؤدي ابتهالات جماعية فتتهاوى شياطينهم وتسقط على الأرض كما تسقط أوراق

الخريف. وكتبت معلومة أخرى تقول: للشـــياطين قدرة كبيرة على تلبس الحيوانات، يأخذ الشيطان شكل حيوان من الحيوانات وخاصة الطيور والعصـافير. وكتبت قصـة كاذبة تقول أنّ ناسكا خرج ذات يوم يحتطب، وكان في طريقه للغابة يتمنى أن يجد شـــيطانه فيقتله ليضمن هداية باقي عمره.

هبطت عليّ فجأة صـحوة ضـمير، عدت إلى رشـدي، أزحت الورقة وتسـاءلت: شـيطاني تحت القدر وأنا أكذب، كيف تسـلل إليّ الكذب وشيطاني رهن الاعتقال؟ مزقت الورقة وأدخلتها في جيبي.

دخلت زوجتي وقبل أن تســـلّم ســـألت: زوجي العزيز في المطبخ؟ ما لذي جاء بك هنا يا صـــاحب المعالي يا زوجي العزيز. قلت لها: شـيطاني وشـيطانك جاءا بي إلى هنا. أشـرت إلى القدر جذلان وقلت لها: انظري! أقبلت نحوي وأنا على الوتيرة نفسـها من الزهو، انتصب مثل كوكبة الجبار الذي في الصورة السماوية.

نَظَرتْ نحو القدر المقلوب على وجهه، شَرَعَتْ تقرأ القصاصة وأنا أنتظر ماذا ســـأرى على وجهها. لم تتمهل ولم تترو ولو لدقيقة واحدة. رفعت القدر في تهوّر وبرود لا نظير لهما.

بادرتُ إلى محاولة تثبيت القدر فما استطعت. نفذ الشيطانان بجلدهما. حاولتُ الإمساك بهما فما قدرت. عبرا النافذة مثلما دخلاها أول مرة، وغابا بعيدا ونحن نرى.

لما سكن الهواء من خلفهما اقتربت من حوتي الأزرق. انشبت أظافري في أكتافها مثل مخلبين مفترسـين، شـرعت أهزها هزا عنيفا

ونظري عند أصــابع قدمي، أهزّها هزّا عنيفا، حبســتني الغصّــة عن الكلام فواصلت الهزّ دون أن أمتلك القدرة على قول أي شيء.

أراك ولا تراني

صـــعد إليه في مكتبه والترقب ملء جوانحه ثم طرق الباب. جاءه صـوت المدير مثل صـوت ضـبع متخم: تفضـل. دخل ولم يجلس، بقي واقفا إلى أن يأذن له بالجلوس. يغضب المدير كثيرا إذا جلس الموظف قبل أن يأذن له. وهذه حالة مألوفة منه. ليســـت الوحيدة ولكنها واحدة من كثير، قال: أجلس. جلس، توجه إليه بكل اهتمام. أرهف سمعه جيدا ولم ينبس ببنت شفه.

ظل المدير مســتغرقا في مطالعة هاتفه الجوال. ابتســم ثم عبس وبسـر، عبس وبسـر ثم ابتسـم. وهكذا هو يحرك عجائن وجوه موظفيه، يشكلها كيفما شاء، يختلسهم من ذواتهم، ويحلّق بهم بعيدا عنها. يضـــحكهم ويبكيهم من غير أن يتحرّك من على مكتبه قيد أنملة.

نظر إليه الموظف وهو على حاله. تمنى لو خطف هاتفه الجوال من يده وقذف به إلى الشارع.

سـأله المدير ونظراته الصـارمة تتوغل في جبهته: أين كنت الساعة العاشرة وإحدى عشرة دقيقة من يوم الاثنين الثامن من مايو؟ لم يكن سؤاله مفاجئا فما أكثر ما طرق سمعه هذا السؤال. أين كنت الساعة الفلانية من اليوم الفلاني من الشهر الفلاني!

رفع رأسـه وقال: مايو؟ رد عليه المدير: مايو. قالها وأضـاف: هذا ليس من عندي، هذا ما كتبه المفتش الإداري. لا شـــك أنّه قد زارك على مكتبك خلال جولته التفتيشـية فلم يجدك. عليك أن تجيب على سؤاله.

سكتّ الموظف المسكين ولم يحر جوابا. قال في نفسه: هم يعتقدون أنّنا نسجل ما نفعله في كل دقيقة من دقائق يومنا الوظيفي. لو علموا أن الواحد منّا ينسى عشاءه بمجرد أن ينام لما سألوا. ضحك في داخله أيضا فخرجت كلمة: يوم الاثنين الثامن من مايو؟.

ذكّره المدير بالسؤال ثانية. لم تجب. قال الموظف: يا سيّدي المدير، نحن الان في شهر أغسطس، وقد فارقنا مايو منذ فترة طويلة. ضحك لتلطيف الاعتراض ثم واصل: لقد نسيت عشاءي ليلة البارحة فكيف أتذكر غيابا حدث منذ أشهر؟ وربما كان غيابا وجيزا قضيته في الحمام، أو في الأرشيف، أو في أي مكان داخل العمل.

اسند المدير ظهره على ظهر الكرسي. ازورّ عنه، انصرفت نظراته نحو النافذة. قال له من طرف فمه: هذه سخرية، سخرية مريرة . تسخر مني ومن المفتش ومن النظام العام للإدارة. اعترته حالة خذلان فخفف من اعتراضه. قال له: لم أسخر يا سيدي وأقسم لك.

رمى المدير بورقة المساءلة على سطح مكتبه. اعتدل في جلسته وقال بثقة مدير: بل تسخر وتسخر، كل المفتشين والمراقبين قد اكتووا بنار سخريتك. هذه المساءلة وردك عليها ستحفظ في سجلك.

خرج الموظف وهو يتمتم في صدره: إلى الجحيم أنت وهذا السجل البائس. تمنى في قرارة نفسه لو وقع هذا المدير في يده،

تذكر وقائعه مع الزجاج العاكس فقال: ليت هذا المدير يقع في يدي من وراء زجاج عاكس، أراه ولا يراني.

وصـــل إلى حيث مكتبه. جلس وبقايا من ســؤال مايو تضـــج بالضـــحك في أعماقه. واصـــل حديثه مع نفســـه: هذا المدير الأهبل يســأل عن مايو في أغســطس. ليته يقع في يدي، ليتني أقتنص منه فعلا مخزياً من وراء زجاج عاكس كما فعلت مع كثيرين.

لله ما أحببت في حياتي اختراعا حبي لذلك النوع من الزجاج العاكس, ذلك الزجاج المظلل الذي يســـميه البعض أراك ولا تراني. ترى الكون كله من خلف ذلك الزجاج ولا يراك أحد، تهتك أســـرار الناس وأستارهم دون أن يلحق بك أذى.

هي الصدفة وحدها أخذت بيدي إلى هذا المسلك الشائن ولكن ليس باليد حيلة، ماذا تفعل مع من يؤذيك وليس لك من قوة تدرأ بطشه؟

اعتقدت طويلا– لكثرة ما أشفيت به غليلي – أن خبراء الزجاج ما اخترعوا زجاجهم ذلك الا من أجلي، تقديرا لحاجتي إلى اختراق جباه الناس مثلما يفعلون معي. يخترقون جبهتي بلا رحمة، يستندون إلى قوة غاشمة، فلم لا أستند إلى هذا الزجاج العاكس؟ منحة العناية السماوية لضعفي وقلّة حيلتي.

اســتمر معه الوســواس الخناس: أســترق النظر على أي كائن حي يقع تحت عيني وبيني وبينه زجاج عاكس، أســترق الســمع على أي كائن حي يقع تحت ســـمعي وبيني وبينه زجاج عاكس. أتعبني هذا

الولع كثيرا، أتعبني بالفعل، لكنه سـلاحي على كل حال. مرض عضـال ليس له من علاج لكنه ممتع جدا، ومفيد جدا. غيّرت من أجله نوافذ بيتي ونوافذ سـيارتيّ، الكبيرة والصـغيرة. أراهم ولا يروني، أقتنص منهم سـلوكا ثم أزرعه مثل الدمّل في نفوسـهم، فإذا ضـعفوا تحت يدي ضربت على سطوتهم سياجا من حديد ونحاس.

أنصـب حاجب الشـمس خلف زجاج السـيارة الأمامي، فهو زجاج شـفاف لا يقبل التغيير. أنصـب ذلك الحاجب المعتم قبل كل شيء ليمنع رؤية ما يحدث داخل السيّارة، ثم انتقل بعدئذ إلى المرتبة الخلفية، أجلس خلف زجاجها العاكس فأرى العجب العجاب. أقضـي كل أوقات فراغي هناك.

شاب على سبيل المثال من بين عشرات وقعوا في فخ زجاجي العاكس. يقف أمام وجهي مباشـرة، يسـتخدم زجاج سـيارتي كمرآة، يمكّن عمامته وعقاله، يشـدهما ذات اليمين ويردهما ذات الشـمال، يمط شفتيه مطا ويعضـها عضـا لتبدو حمراء مكتنزة، يفرك أنفه فركا ويسحبه للأعلى وللأسفل لهدف لا أعرفه.

اسـتمر الوسـواس الخناس في صـدر هذا الموظف الماكر: كم فتحت الزجاج نذالة وضحاياي على تلك الحالة. فتتناثر وجوهم على الأرض كما تتناثر حبات المسـبحة. ما أقواك أيها الإنسـان عندما يضـعف الآخرون تحتك، ما أعلى قامتك ولو كنت قزما عندما تتقاصـر قاماتهم تحتك، ما أقوى عينك وما أحدّها عندما تتكسـر عيونهم أمام عينيك.

ويواصـــل الوســـواس الخناس: وقف أمامي ذات يوم رجل عجيب التكوين. وجهه المتغضـــن، لحيته الكثّة، شـــاربه المحلوق بإصرار لا هوادة فيه، ثوبه الذي يحجم عن تجاوز منتصف الساق، عمامته المتموضعة على رأسه من غير عقال كأنما هوت بها الريح فوقه. وقف أمامي مباشـــرة دون أن يراني، أخرج من جوربه الأيمن سيجارة، أشعلها بولاعة كانت مخبأة في جوربه الأيسر!

هالني ما رأيت. عَقَدَتْ الدهشة لساني، وكل لحمة غضة في جســـمي. فَغَرْتُ فمي وســـألت نفســـي: أهذا هو الذي حطّم طبق الستالايت وطوّح به بعيداً؟ طبق الستالايت الذي اشتريته بمالي ولم أسرقه من أحد. طبق الستالايت الذي وضعته فوق بيتي ولم أضعه على بيت أحد غيري. أيدخّن هذا الكذاب وهو الذي صـــادر علبة سجائري؟ صادرها وضربني عندما أمسك بي وأنا أدخن. كنت أدخن بمحض إرادتي دون إغواء من أحد، فمن أباح له أن يضـــربني ويصادر سجائري؟

سحب من السيجارة نَفَسين فقط. نفسين لا ثالث لهما، ولقوة السّحب كادت أن تشتعل النار على أطرافها. قضـى على نصف السـيجارة في النَفَس الأول وقضـى على نصـفها الثاني في النَفَس الثاني ثم داس على العقب. وعندما همّ بالتهام قطعة من علك النعناع فتحت الزجاج.

نظر إليّ مفزوعا بعينين متسعتين، ثم أخذ يتداخل في بعضه، يتقاصر كما يتقاصر هوائي الراديو، او كما يتقاصر تلسكوب من

ذوات العين الواحدة. تقاصـــر حتى تقزّم ثم لاذ بالفرار لا أرى إلا تقلب مؤخرته السمينة.

كان الموظف الماكر يتذكر كل ذلك ويضحك. لم ينتبه إلا وزميله يَنكِزُ على كتفه بشدة. اعتدل في مكانه واعتذر لهذا الشرود الذي غشـاه بعض الوقت. قال زميله لقد غير فيك سـؤال مايو كل شيء. وجلجلت ضحكات الإثنين في جنبات المكتب.

هذا البسـط الذي اعتراهما جعل موضـوع الزجاج العاكس يسـيطر على حديثيهما. لكن الزميل لم يكن متحمسـا لفكرة الزجاج العاكس. قال له أين ستنصبه؟ ومن يضمن لك أن المدير سيرتكب خطأ وأنت تراه من خلال زجاجك العاكس؟ ثم أضـاف ناصـحا: دعك من الزجاج العاكس. عليك بالأرشيف، تسلل إليه وابحث عن ملفك لتنتزع منه ما يشـكل عليك خطرا من محتوياته، واترك عنك المدير وملاحقة المدير.

كان الزميل متحمسـا في كلامه عن الأرشـيف لكن مفتاح الأرشيف بيد المدير فقط، المدير استولى على الأرشيف حرصـا عليه. نقل الموظف المسؤول عن الأرشـيف إلى مكتب آخر، نقله وغيّر أقفال الأرشـيف ثم أخفى المفاتيح. لا كائن في طول هذه الإدارة ولا في عرضـها يمتلك مفتاحا منها، ولا كائن في طول هذه الإدارة ولا في عرضـها يستطيع دخول الأرشيف دون علم المدير. لكن الزميل فجر مفاجأة عندما سأل: إذا جئتك غدا بمفتاح للأرشيف فما تقول؟؟؟

وصـــل مفتاح الأرشـــيف ليد الموظف الماكر. راقب المدير حتى غادر الإدارة. انعطف نحو الأرشـــيف والمفتاح المنســـوخ في جيبه، تلفت يمنة ويسـرة فلما رأى الممر خاليا فتح الأرشـيف، فتحه ثم دخل والخوف يجفف أنفاسه أولا بأول.

بحث طويلا حتى وجد الرفّ الذي يحمل ملفّات الموظفين. سـحب الملفّ الذي يحمل اسـمه، انتحى جانبا ثم فتحه. كان الملف يضم أوراق مساءلة وتعهدات شتى ومحاضر لا حصر لها.

فتح الحديدة التي تضم الأوراق إلى بعضها. شرع ينزع الأوراق المشـــينة ورقة بعد أخرى. أحصـــاها عندما انتهى من ذلك فوجدها ضـعف الأوراق المتبقية في الملف. مزّقها شـر ممزق، وضـع المِزق في كيس كان في جيبه.

أتمّ المهمة بسلام. حمد لزميله رأيه فهذا أفضل من استدراج المدير لفخ الزجاج العاكس. أغلق الملف ثم تنفس الصـــعداء وقرر إعادة الملفّ إلى موضـــعه ومن ثم المغادرة. مشـــى على رؤوس أصـابعه، ضـاع منه موقع الملف. سـلك المسـار الأيمن فأخذه إلى أرشيف الشؤون المالية، أغراه الشيطان فأخذ يفتش فيه.

راقت له الفكرة كثيرا لكن المطلوب الان هو وضـــع ملفه في موضـــعه. عاد للبحث ، عثر به على مســـافة بعيدة نحو اليســـار. وضـع ملفه بين الملفات فارتاحت نفسـه كثيرا، قال في نفسـه: والآن إلى فضـائح الشـؤون المالية! تحرك نحو اليمين، ظفر بملفات أكثر

إغراء من فضائح المال. قرأ كلمة مساءلة المدير ففرح، قال هذه لا تختلف عن الزجاج العاكس وسوف أرى المدير دون أن يراني.

انتحى جانبا وملفّ المدير معه. فتحه وانكب على أوراقه، رأت عينه في هذا الملف ما لم يكن يعلم. لقد تعرض المدير للتحقيق مرات عديدة، اتخذوا في حقّه قرارات عديدة ويبدو أنه قد التفّ عليها.

صعقته حركة سمعها خلف الباب. انتفض مذعورا، سمع صوت مفتاح يعالج قفل الباب فسقط قلبه وبسرعة خبأ نفسه في زاوية من زوايا الأرشيف. ومن مخبأه رأى المدير بشحمه ولحمه يفتح الباب ويدخل. كان في موضع يرى المدير منه والمدير لا يراه.

دخل المدير آمنا مطمئنا. توجه نحو خزنة في ركن قريب من الباب. فتح الخزنة فأخرج منها حقيبة سوداء. فتح الحقيبة فرأى الموظف الماكر ما فيها بكل تفاصيله.

فيها جهاز على وجهه مؤشرات وساعات مرّقمه كأنها طبلون سيارة. تخرج من أطرافه أسلاك كثيرة، ويخرج منه أنبوب مرن كأنه حنجور ثور مجزور.

وضع المدير الحقيبة على الأرض. خلع أوعيته وقذف بها قريبا من مخبأ الموظف المتسلل، جلس على ركبتيه أمام الحقيبة التي كانت تحتوي على جهاز طبي للمساعدة في تصريف البول.

تمعّر وجه الموظف خجلا مما ورط نفســه فيه. خشــي أن يسـمع المدير دقّات قلبه فينكشـف أمره، قرر أن يكون زمام المبادرة بيده فهرب من الأرشيف يجري مثل زرافة مفجوعة.

النملة والسكر

أحتفظ بحكمة قديمة سمعتها من صديق لي: كن نملة لتأكل ما تريد من السكر. راقت لي كثيرا هذه الحكمة وها أنا الآن نملة في انتظار السكر. سكر قد يأتي وقد لا يأتي، والخوف كل الخوف ألا يكون في هذا البيت لا سكّر ولا ملح أيضا. من يعرف سيدي الخَرِف يشك كثيرا أن حبة سكر واحدة ستسقط من يده. يمتلك ثروة طائلة ومع ذلك لا ينفق شيئا، بخيل جدا، بخيل لم يخلق مثله في البلاد. يتوارى بخلاء الجاحظ خجلا من مكانته العليّة في البخل والتقتير.

رغم ذلك فأنا متفائل بأمر. وحدي أنا من يعرف خرائط هذا البيت، أعرف مدافن أموال هذا الثري الخرِف، أعرف البلاطات التي تستقر فوق تلك الأموال، أعرفها بلاطة بعد بلاطة، أنا الذي حفرت وأنا الذي وضعت البلاطات. أكثر من ذلك كنت أعد الأموال ورقة بعد ورقة ثم أدون اسم البلاطة والمبلغ المدفون من تحتها. لهذا أتحمل الإهانات هنا، أصبر على بخله الشديد، فأنا نملة هذا البيت التي تنتظر السكر.

بيت هذا الثريُّ الخرِف هو البيت الوحيد في كون الله الواسع الذي تجد بلاطات أرضيته مرقمة، لكل بلاطة رقما. وصاحب هذا البيت ذاته لا يمتلك حسابا في البنك، ليس لديه حساب في أي بنك على الإطلاق، هو الوحيد في كون الله الواسع الذي بنكه الأثير تحت بلاطات بيته.

الذي أحصيته من ثروته كان ملايين كثيرة، وهناك غيرها لا يعرفها إلا هو، وغيرها لا يعرفها إلا خادمه الذي مات وحللت مكانه. مات ولم يظفر بشيء فهذا العجوز بخيل لا يدفع مالا، يدفع طعاما فقط، هل رأيتم معاشا يحسب بعدد الأرغفة وأطباق الفاصوليا؟ هو الوحيد في كون الله الواسع الذي يفعل ذلك. بيت غريب، عجوز غريب، ثريّ غريب، معاش غريب، من مات في هذا البيت ولم يسرق مالا فهو نملة خاسرة، نملة تفني العمر في انتظار سكّر لا يأتي.

سمعت صوت مقعده المتحرك، كان له صرير مثل صرير قطار، هو قديم جدا ومتهالك جدا، عجلاته أوشكت أن تكون مربعة الشكل بسبب عمرها الطويل.

اقترب من المكان الذي أقف فيه وعليّ أن أتوقف عن الكلام المباح. أقبل نحوي، صرخ في وجهي ساعة إقباله عليّ، قال بلا أدنى حياء أو مجامله: لعنة الله عليك ولعنة الملائكة والأنبياء والناس أجمعين.

سكتُّ ولم أرد عليه بأي كلمة. أمعن كعادته في شتمي ثم سأل: أين طعامي؟ أريد طعامي. أنا جائع جدا وأنت واقف هنا كأنك عارض أزياء. ضحكت كثيرا من هذا الوصف، ألقيت نظرة سريعة على ملابسي الرثّة، قلت له: طعامك جاهز يا سيدي، ثوانٍ فقط يكون بين يديك، خرجت على وقع شتائمه في طريقي للمطبخ. عدت

ومعي الرضاعة التي فيها طعامه، منذ أن عملت هنا وهو هكذا، ما عرفت السبب وما سألت عنه.

ناولته الرضاعة وبدأ يمصها باستمتاع، لم يكن بحاجة إلى هذه الأداة، أسنانه كأسنان الحوت. عضني في لحظة حنق فأحسست أن كتفي قد أصابها الشلل. ليست عنده أي مشكلة في البلع، لو ألقمته حجرا لابتلعه ولا يُبالي. أفرغ الرضاعة العملاقة في معدته وطوّح بها عند أقدامي واستدار، برم الكرسي بعصبية وانصرف. انحنيت وقلت في نفسي لا بأس فأنا نملة هذا البيت.

التقطت الرضاعة من على الأرض. حملتها وذهبت بها إلى المطبخ، بدأت في تنظيفها وتجهيزها للوجبة القادمة، قبل أن أفعل ذلك سمعته يصرخ بقوة. اقتربت من غرفة نومه. كرر الصراخ، كان يهدد لصوصا ما. يدعو عليهم بالويل والثبور وعظائم الأمور. خشيت أن اقتحم الغرفة عليه فأجده تحت وطأة كابوس، هذا هو الأقرب، وإلا فأي لصوص في غرفته؟ لقد اختار غرفة كأنها القلب في هذا البيت، ثم عمد إلى نوافذها فأغلقها بالطوب والاسمنت، غرفة محصّنة محكمة الإغلاق فأي لصوص يمكن أن يراهم فيها أو منها؟

قلت لنفسي: أعود للصالة وانتظر، إن كان حلما فسوف يتبخر في فراشه، وإن كان حقيقة فسوف يأتي لطلب مساعدة. بقيت دقائق عديدة وصوت الخصام والسباب يأتيني من خلف باب غرفته. راودتني نفسي على اقتحام الغرفة لكني خشيت بذاءته وسلاطة

لسانه. فعلتها ذات مرة وهو يصرخ كما يفعل الآن فأسمعني كلاما ما سمعته حتى في أكثر الشوارع دناءة.

سمعت صوت الباب، وسمعت صرير عجلات الكرسي. اقترب مني. أمطرني بوابل من الشتائم. نهضت وقلت له: يا سيدي أنت تمعن في إيذائي، من يسمعك يظن أني مقصر في خدمتك ويظن أنك تعطيني مالا. قلت له ما قلت وكأنما أشعلت فتيل بارود.

صرخ في وجهي وأكد أنه سيّدي، وأن الخادم لا يقف في وجه سيّده هكذا. أما عن المال فقال: أنا لا أعطيك مالا. هذا شرطي وقد قبلتَ به. أضاف وقد تذكر: والطعام؟ الطعام الذي تملأ به بطنك ثلاث مرات كل يوم هل نسيته؟

استفزني بمسألة الطعام فنسيت أني نمله، قلت له: ربع رغيف وثلاث ملاعق من الفاصوليا تسمي هذا طعاما؟ عاد للثورة مجددا وتذكر أنه عندما كان في مثل عمري لم يكن يجد وجبة واحدة في اليوم إلا بمشقة عظيمة. شرع يلوح بعصا الطرد من الخدمة، تذكرت البلاطات السمان، وهذا العجوز الذي قد يموت في أي لحظه، تذكرت ذلك فأقبلت نحوه معتذرا، طبعت قبلة على جبين أكل عليه الدهر وشرب، طلبته أن يغفر خطأي.

رفع رأسه نحوي وقال لي: لا تضيع الوقت. اللصوص يحاصرون البيت، أحدهم سيقتحم بيتي والبقية تنتظره خارجا، من سيقتحم البيت يحمل في يده سكينا. يقتلك ويقتلني ثم يفتح باب

البيت لرفاقه. ســـتتكاتف أيديهم فيصـــبح البلاط تحتها مثل أوراق كتاب.

أذهلتني هذه التفاصـــيل وكأنه واحد من العصـــابة المتخيلة نفســـها. قلت لـه: أهذا رأيتـه في منـامك؟ وفوجئت بـه يقول نعم. أضـــاف: مناماتي لا تكذب، أخرج الان وســـوف تراهم حول البيت، مناماتي لا تأتي من فراغ.

خرجت. طفت بالبيت، ارتفعت بي أقدامي أعلى الشـارع، ثم هبطت بي أسفله. كان الشارع هادئا وأعمدة النور تملأ المكان أمنا، طفت بالحيّ كلّه فلم أر شيئا ذا بال.

عدت إليـه. أخبرتـه، بـان التـذمر على أطراف فمـه، أمرني باعتلاء سطح البيت، فالرؤية من فوق سطح البيت أشمل وأوسع.

قبلت أمره. اعتليت الســـطح، فتشـــته أولا وكأنني أبحث عن شـــيء مؤكد. ألقيت نظرة على الشـــارع من علٍ فلم أر شـــيئا، حتى القطط نامت، وبراميل القمامة نائمة. حتى الهمس قد غادر شـــفاه العشاق والمحبين، وغادر أشداق المتآمرين أيضا.

نزلت من على السطح، أقبلت على الصالة فلم أجد له أثرا، أخرجني منها فلما خرجت عاد إلى غرفته. قد يرى لصـــوصـــا في منامة أخرى فيأتيني متبرما. قلت: ســـأقترب من غرفته، أتحســـس، أعرف إن كان فيها أم لا. اقتربت وأصـــغيت، ســـمعت شـــخيره مثل منشار اعتراه الصدأ. عدت للصالة فهو لا يغيب عنها طويلا.

نمت ساعتين، تزيد قليلا أو تنقص قليلا. في هذا البيت لا يمكن أن تملأ من فراغاتك شيئا، لا فراغ البطن ولا فراغ المقلتين ولا فراغ الرأس ولا فراغ الجيب. أيقظني بعصا وكز بها خاصرتي، وكزني بقوة وكأنها في جنب حصان كالطود العظيم. آلمتني فاستويت جالسا، قال لي والعصا توشك أن تخترق جنبي: لا تسهر. نم جيدا، غدا ستحملني على ظهرك حتى يستقر بي المقام على سطح الدار.

فركت عينيّ والدهشة سؤال على فمي فسألته: سطح الدار؟ أجاب بأنه يريد جرعة مشبعة من أشعة الشمس، يريدها أن تشرق عليه. ثم ذكرني بأن المرحومة أمه كانت تنصحه بالباكورة من كل شيء. أول قطفة من ذهب الشمس، وأول قطفة من أي ثمرة، وتابع يعدد لي ما أوصت به المرحومة أمه وأنا أهز رأسي. تمنيت لو غادرني الآن فلم يتبق من الليل ما يروي غلالتي. يقول لي لا تسهر، ويقف على رأسي يثرثر. استمر يثرثر، فلما سكت قلت له: رحم الله أمك وأسكنها فسيح جناته.

أيقظني قبل أن يتنفس الصبح وقبل أن يرتفع عمود النور. وكزني وصاح بي: هيّا. لغته الوحيدة تتخلّق عند ذؤابة عصاه. وكز خاصرتي وكزا كأنه طعن الرماح. نهضت سريعا وقلبي مثل طائر أفزعه القنّاص، ما سألت ولا سأل، وما أجبت ولا أجاب فالمهمة معلومة، المهمة قد صبها في وعيي قبل أن أنام.

دفعت الكرسي بتؤدة وعجلاته لها صرير. دفعته حتى بلغنا أقدام السُلم، جلست القرفصاء أمامه وهو فوق الكرسي، جذبته من يديه حتى استوى على ظهري راكبا فلما استوى استقبلت السّلم. انطلقت صعودا أحمل سيّدي على ظهري. يداه تلتقيان على صفحة جبيني ورجلاه كأنهما محراثان في مهب الريح.

سيّدي قادر على المشي بل وعلى الجري أيضا، قادر على صعود الهيمالايا فكيف بهذا السّلم؟ قادر على حملي وحمل أمتعتي معي لكنه لا يريد. لا يريد أن يمشـــي على قدميه، يرى في ثروته مكافأة له، ومن حقه أن يستعبد غيره، أن يركبهم كما يركب الدواب. قال ذلك مرارا وتكرارا، وعلى مسامع آخرين غيري.

طلب أن يتمدد على السطح، على الأرض مباشرة، ساعدتُه في ذلك، قال أضجعني على الشق الأيمن ثم سأل: من أين ستشرق الشمس؟ فلما أخبرته قال: إذن على الشق الأيسر. أراد أن يواجه شروق الشمس. يريد خيوطها الأولى تغمر وجهه وصدره أولا. قال إياك أن تنزع ملابسي، لو فعلت ذلك فسوف تفتك الشمس بجلدي. قلت له: حاضر. قلت له ذلك وأنا أتعجب من ملاحظته الجوفاء، ما الذي يجعلني أنزع ملابسه؟

سألته: هل تشتكي من علّة يا سيدي؟ أم هي فطنتك؟ ولم يجب كعادته. يتجاوز الإجابة عن كثير من اسئلتي لكن هذا لا يهم، تذكروا دائما قول المثل: كن نملة: تأكل سكّرا. سأحمله على ظهري، أكون دابته المطيعة، أمنحه خاصرة لا تضيق ذرعا بوكز عصاه،

نومي له وصحوي، أنام بأمره وأسدل جفاني كما يريد، أتحمل ذلاقته وأصـــبر على بذاءته. أقبل ربع رغيف في كل وجبة ومعها ملاعق قليلة من الفاصوليا وأكون له من الشاكرين، أشرّق معه وأغرّب، ألزم جانبه مثلما يلازمه ظله.

تقلّب ســاعة تحت أشــعة الشــمس الذهبية. تمطّى وتقبّض وتمدد، فلما اشــتعل نارا قال: أبعدني من هنا. حملته هبوطا، حملته على ظهر ما ملّ من حمله ولن يمل ولن يســلّم حمله إلا لنعشــه. أودعته منامته وقفلت راجعا. ارتميت على ســـريري، كنت في غاية الإجهاد والنصب، أحتاج ولو لساعة نوم فقط.

قبل أن أمنح أجفاني للنوم سـمعت طرقا خفيفا على نافذتي، دهشـت كثيرا. النافذة تطل على زقاق ضـيق غير نافذ، فمه الأعلى مفتوح بينما فمه الأســـفل مغلق. تتراكم فيه الأوراق التي تطوّح بها الريح الضـــالة، تتراكم خُلطة مع العلب الفارغة، حتى بقايا العظم وشظايا الزجاج الجارح والمعادن الحادة القاطعة تتناثر في كل شبر منه. نافذة لا تصل إليها حتى القطط الجائعة فمن يكون هذا الطارق الذي تجشم الطريق إليها؟

كان الطرق ينتظم ثوان ثم يتوقف دقائق، اقتربت من النافذة، أرهفت السـمع قليلا وعندما عاد للطرق فتحت فرجة ضـيقة أسـترق النظر منها. كان حارس العمارة المقابلة يتعلق بأصـــابعه في حافة النافذة، واقفا على أصـــابع قدميه مشـرئبا إليّ. لثته الباهتة تفضـــح شيئا يضمره.

فتحت النافذة فبادرني قائلا: أريدك في أمر على انفراد، تأتي معي أو تفتح لي الباب. قلت له دون سؤال أو جواب، من غير مقدمات ولا اعتذارات: لن آتيك ولن أفتح لك الباب، ليس بيني وبينك معرفة حتى تنفرد بي وأنفرد بك، وإلى ذلك ها أنا أمامك، معي أذنان وعينان وقلب شهيد، قل ما عندك لأرى.

قال: لا أستطيع. لا بد من خلوة ليس فيها سوانا. ثم بدأ يتوسل: أرجوك دعني التقيك على انفراد، هنا أو هناك. قلت له: هناك لا، لا أقدر على مفارقة سيدي ثانية واحده، هذا مصدر عيشي ولن أضيعه. وهنا مستحيل، هنا، لا أيضا. سيدي لا يغيب عني طويلا، إن غاب ساعة ذابت منه الكبد غبنا وندما.

تلفّتَ خوفا كما يتلفت السُّراق، قال لي: لقد احتطت لكل هذا، عرفت ما وصفت لي قبل أن تصف. ناولني ورقة ثم عاد للكلام: في هذه الورقة كل ما أريد، اقرأها جيدا فإذا فهمت ما فيها فلا تمزقها، أحرقها بالنار، أحرقها إن قبلت ما فيها وإن لم تقبل.

دفع بي الفضول لتناولها، كنت وكان مثل من يتبادل لفافة حشيش. تخلص منها بسرعة واستدار ينتقي مواضع قدمه خوفا من زجاجة جارحة أو حديدة قاطعة. أغلقت باب النافذة وفتحت الورقة، كانت أشبه بطلاسم ساحر. أو لعلها بدت لي كذلك فما أنا بصاحب حظ في القراءة وما هو بصاحب حظ في الكتابة.

قرأتها بصعوبة بالغة، وشعر رأسي يقف، شعرة إثر شعرة مع كل حرف فيها. تمعّر وجهي، غضبت وحزنت وأسفت، مزقتها شرّ ممزق ثم أودعت حفنة المِزَق جيبي.

خرجت إليه سريعا. وقفت أمام باب عمارته، تهلل وجهه وأقبل نحوي، لكني صدمته بوجه متجهم. اقترب مني وأمسك يدي اليسرى، أراد أن يستضيفني في مكان عمله، لم أقل له شيئا ولم أتحرك من مكاني. مددت سبابتي، ثم أرخيتها، لتغدو في مرونة قضيب المسواك. ضربته ثلاث ضربات على سنام أنفه، زمّ وجهه وتراجع للوراء، قلت له لن أمزق رسالتك ولن أحرقها، ستبقى في جيبي شاهدة عليك. اقتربت منه أكثر وكررت أنها ستبقى شاهدة عليه.

أُسْقِط في يده لكنه استرجع طاقته وعاد للكلام، قال لي: أرجوك تخلص منها بأي طريقة كانت أو ردّها لي. قلت له: أن ترى أذنك رأي العين؛ هذا أسهل عليك من الظفر بالرسالة المشينة. تركته ومضيت، كانت خطاي حثيثة وكانت يحث السير خلفي، كنت أسمعه من ورائي يقسم بربه أنه كان يختبرني، سمعت ذلك كله فلم ألتفت حتى تباعدت خطانا عن بعضها.

عدت للبيت خائفا أترقب، خشيت أن يكون سيدي العجوز قد بحث عني. لو حدث هذا فمن ينجيني من لسانه السليط؟ دخلت وأغلقت الباب خلفي. اقتربت من غرفته، أدنيت أذني من بابها،

أرهفت سمعي جيدا فعرفت أنه ينزع دلاء النوم نزعا. تركته وانصرفت لغرفتي،

ارتميت على سريري. تمنيت لو تغشاني غيبوبة ففي أجفاني جوع للنوم، جوع قارص حارق منهك ممتد حول عنقي وعلى أكتافي وفوق رقّة جبيني. قفزت الرسالة في خاطري كأنها شاشة فضية، رسالة أمّارة بالسوء. رسم لي المعتوه خطة لنشترك في قتل سيدي، نقتله ونقتسم تركته.

أكره القتل وأمقته، والرسالة تقول أقتل سيدك. ترتعد فرائصي عندما يذبحوا دجاجة، والرسالة تقول أقتل سيدك. نعم أنا أكرهه، أكرهه وأنتظر موته، يموت حتف أنفه وليس بيدي. أصبر حتى يقصف الله عمره دون أن أقتله، أنا أجبن من ذلك وأعفّ.

يريد الحارس الأبله أن يقتسم معي المال. ضحكت دون وعي مني وأضفت في نفسي: يشاركني هذا البرذون الأعمى؟ هل وجد ما وجدت؟ هل عانى ما عانيت؟ هل حمل العجوز الطماع على ظهره؟ هل عاش على ربع رغيف؟ ما رأى من هذا شيئا ويقتسم؟ بكل ثقة يريد أن يقتسم؟ قلت في نفسي: تعس هذا الحارس الغبي وخاب.

انتفضت فجأة وأنا على سريري. حدّقت في سقف الغرفة، شرد ذهني قليلا، عرفت أنني الآن استيقظ من نومة طويلة. نظرت إلى الساعة، صعقتني عقاربها، ظهر لي أن تسع ساعات قد

أمضيتها على السرير. تسع ساعات نائما، هي أقرب إلى غيبوبة منها إلى سِنَه.

منذ التحقت بهذا البيت لم أنم هكذا، ساعة ساعتان ويأتي سيدي مثل قدر لا يخلف موعدا. في هذه اللحظة تذكرت سيدي، جلست مفزوعا، تساءلت: تسع ساعات لم يقطع انتظامها؟ لعله قد جاء مرارا وتكرار دون وعي مني. وربما نام هو كل هذا الوقت. لم لا؟

نهضت من على السرير وغادرت غرفتي. توقفت عند غرفته، انتصت دون فائدة. طرقت الباب وانتظرت، طرقت وطرقت ولما لم يستجب فتحت الباب. دخلت عليه وقد انزاح عنه الغطاء.

وقفت بجانب سريره. نظرت إليه، بدت لي بشرة وجهه وكأنها من البلاستك. أنفاسه ساكنة تماما، تحسست نبضه فلم أسمع نبضة واحدة. قلت بصوت عال: سيّدي. ارتد الصوت نحوي دون صدى. شرعت أهزّه بيدي هزّا دون جدوى، تكسر البكاء في صدري رغم انتظاري لهذه اللحظة.

علوت ظهر منضدة قريبة، صرخت كما يصرخ الفاتحون: أنا الآن مليونير هذا البيت. دخلته خادما، عشت فيه نملة تحت أقدام صاحبه، وهذا أنا الآن على مشارف عصر السُكر.

نزلت واقتربت من جثته. قلت له: رحمة الله عليك يا سيدي، لا تغضب منّي فأنا وريثك الوحيد. انحنيت فوقه، طبعت قبلة على

جبينه، خاطبته بمحبة: سامحني يا سيدي سآخذ مالك. أتاجر به في بورصات العالم.

قلت له أيضـا: الخادم الدابة الذي كنت تمتطيه سـيهزّ بيده بنوك العالم. ستعرفه طوكيو وبكين وموسكو، ستعرفه باريس ولندن ونيويورك. سـامحني يا سـيدي إن نلتُ شـهرة ما ظفرتَ بها في حياتك، شهرة أشتريها بنفس المال الذي اشترى كرامتي.

عدت ثانية فوق ظهر منضـدة الفاتحين وقد أبحت لنفسـي اليوم كل شيء. صرخت: أنا الان سيّد هذا البيت. أنا ثري من كبار الأثرياء، سأشتري العقارات والسيارات وأدخل الانتخابات، ستضيئ الكؤوس على أطراف أصابعي وتتمايل الجدائل في بؤبؤ عيني.

نزلت وقلت لسـيدي الذي مات: سـوف أمشـي على رؤوس الأفاعي وأروّض الذباب، سـوف أرد الجميل لصـديقي الذي ضـبط عمري على موازين النمل، ولن أنساك ما حييت.

قمت بنزع ملابسـه حتى لا تفوح منه رائحة قبل أن أنبش البلاطات. نزعتها قطعة بعد أخرى ثم نشـرت قطعة من قماش خفيف سـترت بها عورته. فتحت تكييف الغرفة الذي لم يعمل يوما وخرجت.

غادرت الغرفة إلى غرفة البلاطات التي تحوم على بركة من المال. معي الأزاميل والشـواكيش وسـيدي مسـجّىً على سـرير نومه والأبواب كلها مؤصدة. من يحول بيني وبين المال الآن.

جلســـت عند البلاطة الأولى. أولجت إزميلي، صـــاولت البلاطة حتى اقتلعتها. أزحت البلاطة فأبانت عن رزم من الأوراق النقدية. بكيت فرحا، اختلط المخاط بالدمع، وضـعت هذه الوجبة من أوراق النقد في كيس كبير.

انتقلت ومعي عدّة النبش إلى بلاطة أخرى. حنيت رأســـي أغرس الإزميل. أحسست وكزة عصا في خاصرتي.

التفتُ ببطء. رأيت ســـيدي يقف خلفي عاريا كما خلقه الله. نهضـت ببطء، اسـتدرت نحوه، بصـق في وجهي. كان لعابه حارقا مثل الأسيد.

بدأت أتقهقر للخلف وبصـاقه يتبعني. أغرقني تماما، عبرت الممر إلى غرفتي وهو خلفي، قفزت من نافذتها، مشيت فوق شظايا الزجاج وبقايا المســـامير. تمزق لحم حذائي، غارت الشـــظايا في لحمي.

كان هو في النافذة يتبعني بعينين حارقتين ويقهقه. أسـرعت أكثر، شـــعرت بخفة فانطلقت مثل قذيفة هاون، انطلقت حتى واراني فراغ هائل من هباء أصفر.

أنّات الربابة

قرأت لافتة إعلان منسدلة من فوق عمارة في طريقي، فتحرك الطاووس في داخلي. أخذ مني الزهو كل مأخذ، صورتي تتوسط الإعلان، واسمي ظهر عليها بخط عريض ولون مميز، لون يُرى من مسافات بعيدة كما أخبرني بذلك مالك المقهى.

المقهى الذي يتوسط المدينة ومع ذلك أمسى يقف على حافة الموت. لم يعد قادرا على استقطاب الزبائن، أولئك الزبائن الذين صرفتهم أحوال أخرى، وملاءٍ أخرى، صرفتهم شيئا فشيئا حتى بات المقهى مهجورا تعوي فيه الرياح.

رأى مالك المقهى أن يحيي الحكواتي الذي مات في مدينتنا، لعل حياة ذلك الراحل العجيب تعيد الحياة للمقهى. قال لي أنه سيواجه الريح العاتية بساتر من أشجار النخيل العالية، وأن ثقافتنا الأصيلة هي نخل شامخ. نظرت إليه وقلت في نفسي: ليت تلك الريح قد هبّت علينا منذ زمن.

صاحب المقهى يثق تماما في قدراتي، رغم أنه لم يسمع مني حكاية واحدة، بل ولم يسمع مني كلمة واحدة قبل لقاء أمس الأول. أرشده إليّ آخرون، أعرف بعضهم معرفة جيدة وأجهل بعضهم، قالوا له هذا الحكواتي لا أحد يَفْرِي فرْيَه فقبِل شهادتهم.

قَبِلُها مع أن أحدا منهم لم يسمع مني حكاية واحدة. الذين أعرفهم ما سمعوا مني شيئا، فما بالكم بمن لا أعرفه أصلا؟ الذين أعرفهم قالوا لي أكثر من مرة أنت حكواتي بارع وأنا أبتسم لهم

مجاملا. صـدقتهم لكثرة ما وصـفوني بذلك الوصـف، صـدّقتهم ولم أرو لهم حكاية واحدة ولا حتى لغيرهم.

عندما تعاقد معي صـاحب المقهى أخبرني بأنه قد يئس من العثور على حكواتي له تجربة. هذه الحرفة قد انقرضـــت منذ زمن بعيد ولم يبق على الأرض حكواتي واحد.

شغلت وظيفتي الجديدة كل تفكيري. فأنا حكواتي بلا تجربة، والمقهى في النزع الأخير يصـــارع الموت وروحـه بيـدي، والعقد منصـــف عادل. كل هذا ألقى على كاهلي عبئا ثقيلا، قبلته لأن صـــاحب المقهى قد علّق آماله عليّ، قبلت العقد وأنا بكامل قواي العقلية وأمضيت عليه.

كان ســـعيدا بذلك وكنت ســـعيدا به أيضـــا. قبلت العمل وأقسمت لنفسي أن أخلص فيه، ومن الإخلاص أن أرتب له نفسي، وأن أكيّف له حياتي، وأن أخطط له تخطيطا ســـليما. يحســـن بي اختيار زي مناسـب وأدوات مناسـبة وأن اختار مادة مغرية للحكي، مادة تجذب الســـامعين وتمتع الحاضـــرين وتلفت انتباه الغاديين والرائحين.

لافتة الإعلانات المنســـدلة من علٍ تتطلب مصـــداقية. وصـورتي عليها تفرض عليّ أن أكون مثلها، واسـمي المكتوب بلون مميز يجب أن أجعله أكثر تميزا بما أصنعه للناس.

اخترت أن أذهب أولا إلى سـوق الآلات الموسـيقية. احتاج إلى ربابة لأنها صـــاحبة الحكواتي الأثيرة، كل أشـــعار الحكايات

تُعزف على الربابة، العزف عليها سهل والتدرب عليه أسهل، هي آلة بوتر واحد فقط وكل ما تحتاجه هو المزيد من الإحساس بالنغمة.

طفت السوق من أسفله إلى أعلاه ومن أعلاه إلى أسفله فلم أجد ربابة واحدة. أرشدني أحد الباعة إلى آلة الكمان، قال عنها أنها ربابة العصر وقال بائع آخر إنها بنت الربابة. لم أقبل أي وصف من هذه الأوصاف وأصررت على الربابة. أخذ بائع منهم بيدي حتى أوقفني على آلة أورغ جميلة، وصفها بأنها أم الآلات تقبل أداء أي آلة تريد. شهد لها بأنها مُعرّبة جرى تطبيعها على السلّم السباعي، لم أقبل أيضا، شقّ عليّ أن يظهر الحكواتي بكمان أو أورغ.

أرشدني أحد الباعة إلى دكان صغير في أسفل السوق، ذهبت إليه، بدا لي أنه رجل كبير في السن وربما كان قديما في تجارة الآلات الموسيقية. رحّب بي وعندما سألته عن الربابة سألني عما سأصنع بها. لا أحب هذا النمط من الباعة الذي يسأل هذا السؤال، هو سؤال متطفل جدا لأن جوابه لن يخلق لي الربابة من عدم ولن يمنع من شرائها إن كانت موجودة، اكتفيت بقولي أريدها وسكتّ.

حك مقدمة رأسه بأظافر غير مقلمة، ثم بدأ يحدثني عن خصائص الآلات الحديثة، ثم رشح عددا منها لتحلّ محل الربابة، ولم ينس أن يحطّ من أهمية الربابة. وصفها بالآلة العوراء لأنها وحيدة الوتر، ووصفها بالبدائية لأنها قديمة حلّت محلها آلات أكثر

حداثة، آلات تسهل صيانتها ويسهل التعامل مع أعطالها ويسهل تبديل ما تلف منها.

أفضل شيء سمعته من فم ذلك العجوز أن مثل هذه الأشياء يمكن العثور عليها في سوق القديم، السوق الذي يبيع الآثار والتحف والأنتيكات وسائر الحاجيات القديمة. قلت لنفسي كيف غاب عني هذا؟ كيف غاب عني أن الربابة قد أمست تاريخا أو قطعة منه. وما دامت كذلك فإن مظنة العثور عليها لن تكون في أسواق السلع الحديثة بل في أسواق السلع القديمة، السلع الأثرية.

لم يكن سوق الآثار بعيدا من هنا لذلك عبرت إليه سيرا على الأقدام. دخلته من أعلاه ودكاكينه تزخر بالقديم والأقدم. حتى الهواء في فضائه قديم وأثري، رائحته تاريخية لا يخطئ تمييزها أنف أبدا. شوارعه ودكاكينه أيضا ذات طابع تاريخي، يبدو أنه واحد من الأسواق القديمة التي تم إحياؤها وتزويدها بالكهرباء ومن ثم تخصيصها لتجارة الأشياء القديمة النادرة.

وقفت أمام دكان من الدكاكين وسألت عن الربابة، حك حاجبه الأيمن قليلا ثم اقترب مني، مد يسراه من وراء أكتافي حتى أمسك كتفي اليسرى. أشارت يمناه إلى برج لهوائي الهاتف الجوّال في الحاف المقابل من السوق. قال هناك تجد بيوت الشعر، وأدوات القهوة، والربابة، وكل ما يتعلق بمجالس البدو.

وقفت أمام دكانة هناك فيها أكثر من مائة ربابة. مائة ربابة معلقة بنظام وترتيب حسنين على حيطان الدكان الثلاثة. لكني

صدمت كثيرا عندما أخبرني أنها مجرد نماذج للزينة. اختبرت واحدة منها فكان صوتها ضعيفا لا يكاد يبين. قلت له: يا سيدي أريد ربابة حقيقية، لها قوس ولها وتر ورنين. أجاب بأن الربابات الأصـــلية غالية جدا وإلى ذلك فهي قديمة غالبا ومتهالكة، إن راقت لك فاسلك الطريق نفسه حتى تقف أم الدكان الخامس وسوف تجدها هناك.

وقفت أمام الدكان الخامس، أطلعني صاحبه على عدد كبير من الربابات القديمة الأصـــلية، تنقلت بينها ربابة إثر ربابة، كل واحدة أروع من الثانية، لكن روائحها لا تطاق. رائحة جلد عتيق شـــديد النفاذ، اشـــتكيت إليه تلك الرائحة فأخبرني أنها رائحة الجلد والخشب إذا مرّ عليهما زمن طويل. قلت في داخلي: أول مرة أشم للتاريخ رائحة.

عندما رأى الرجل ترددي حاول أن يميز بين الربابة للمتحف وبين الربابة للاســـتخدام. قال: هذه القديمة كلها للمتاحف ونعرف بدويا يأتينا بين الفينة والفينة يصـــنع ربابات للاســـتخدام. فغرت له فمي دهشـــة وقلت: صـــحيح؟ قال: ويعطيك دورة عاجلة مركّزة في العزف عليها وعلى وزنها وصيانتها. قلت حسنا، أين هو؟ تركت رقم هاتفي عند صاحب الدكان وقلت له سأنتظر اتصالا من هذا البدوي الذي ساقه الله إليّ هذا اليوم.

لم أشأ أن يضيع وقتي في انتظار البدوي ذي الربابة، قلت أرتب مســـألة الزي الذي ســـأظهر به أمام مرتادي المقهى. اخترت الزي الذي كان على آخر حكواتي عاش في مدينتنا. قمت بزيارة

خاطفة إلى خان الخياطين فوجدت الخان قد أُزيل، حل محلّه مول حديث مهيب. سألت هناك عن خياط يتقن حياكة الثياب القديمة فانا أُريد ثوبا له أكمام طوال، وقلت: كانوا هنا في خان الخياطين فاين ذهبوا وأين ذهب الخان؟ عرفت أنه لم يدرك الخان لكنه دلّني على خياط يبيع ثيابا على طلبي.

ذهبت إليه فوجدتها معلقة لكنها من نسيج حديث مختلف، فهم مقصدي فأرشدني إلى سوق القديم، قلت له والعمائم الصوفية وعقال القصب الحر؟ قال: كلها هناك، هذه أشياء منقرضة باتت على ذمة التاريخ ولن تجد التاريخ إلا هناك.

سوق القديم كّرة أخرى، أعود إليه ولكني قد عرفت تفاصيله بشكل أفضل. وقفت أمام بائع الملابس القديمة، طرحت عليه حاجتي وعددت له أوصاف طلبي. أطلعني على الكثير منها بين من مطويّ ومنشور، الملابس قديمة بالفعل لكن في كل واحد منها نقيصة أو أكثر.

توقفت عند واحد منها. كان نسيجه من قماش الدوت الكتّاني وكانت خيوط حياكته من بِرام أحمر. الصفات هي الصفات لكن القوام قد رقّ كثيرا حتى بات مثل كفن في قبر عتيق. والرائحة أيضا، الرائحة لا تطاق، ملابس بقيت سنين طوال بعيدة عن الريح والشمس والماء حتى أسنت.

أدرك بائع الملابس أن الرائحة النفّاذة قد عقرت رغبتي في الشراء. هون الأمر عليّ لكني لم أقتنع، الثياب في غاية الرثاثة

والغسيل سيمزقها، وقبل ذلك وبعده فليس هناك من غسّال يقبل أن يغسلها.

بادرني باقتراح ملهم سرّني كثيرا. اقترح عليّ حائكا بارعا قد تقدمت به السن فأودى به العجز، لم تعد لديه قدرة على متاعب المكائن فاعتزل الحياكة. لكن عندما يتعلق الأمر بثوب أو ثوبين فإنه لا يمانع. قلت: جزاك الله خيرا، أين أجده؟

طلب رقم هاتفي الجوال وعندما أعطيته نبهني إلى أمر الأجرة، نبهني إلى ندرة هذا النوع من الحياكة وندرة خاماته وسن الحائك وما هو عليه من الحاجة. قلت له: قل له ألا يقلق، سأوفيه أجره كاملا، ثم أخذني الحماس فأضفت: قل له: أنت الجزار وأنا الذبيحة فلا تخش شيئا.

حرّكت أريحيتي هذه شهية البائع فذكّرني بالحلاوة كما قال، قلت له: أبشر. تذكرت القماش فذكّرته، قلت له أريده من قماش الدوت الكتّاني فلا تنس هذا، قلت له ذلك وعندما هممت بمغادرة باب الدكان تذكرت العقال، سألته عن العقال المقصّب أين أعثر عليه؟

لست أدري إن كان هذا البائع صادقا فيما قال أم كان يهوّل عليّ الأمر لحاجة في نفسه. قال لن تجده إلا في المدينة البعيدة وفي المدينة البعيدة قد لا تجد ما يعجبك لكنك ستجد من يصنع لك عقالا كما تريد. قلت له اسألك إن كان في سوق القديم من أجد عنده عقالا مقصّبا فتقول لي في المدينة البعيدة؟ اقتربت منه وقلت

له: هنا، هنا في سوق القديم. أشار بيد باردة إلى جهة من سوق القديم وقال هناك.

لم يكن المكان بعيدا فذهبت سيرا على قدميّ، كانت هناك دكاكين كثيرة متجاورة وجميعها تبيع العُقُل، العُقُل الصوفية السوداء والبيضاء والعُقُل القطنية والعُقُل التي عليها القَصَب. عندما طرحت حاجتي على الدكان الأول سألني صاحبه إن كنت أريد قصبا حرّا أم قصباً مقلدا، قلت له أريد القصب الحُرّ.

لم أجد عقالا من القصب الحر إطلاقا، بحثت في جميع المحلات المتجاورة دون جدوى. أخرج لي بعضهم عُقُلا مقصبة قديمة جدا ما راق لي منها شيء، مهترئة جدا متسخة جدا تنبعث منها روائح التخزين الطويل السيئ. حاولت أن أجد في هذه المحلّات من يدلني على صانع يصنع لي عقالا من القصب الحُرّ فلم تنجح محاولتي، كلهم دون استثناء أشاروا إلى المدينة البعيدة. قلت في داخلي والبائع أمامي: يا لهذه المدينة البعيدة كم فيها لنا من المآرب، ويا لمدينتنا الصغيرة هذه دائما لا نجد فيها إلا وجوهنا الجميلة. قلت ذلك ثم قلت للبائع: لا بد من المدينة البعيدة إذن. ابتعدت عن المكان ثم عدت أدراجي إلى البيت، في السيارة كنت أرى أن المدينة الكبيرة ستوفر لي أشياء كثيرة، لكني أخشى أن أسافر فيُتَلْفِنُ علي البدوي أو الحائك، لذلك قررت تأجيل السفر حتى لقائي القريب معهما.

فاجأني رقم لا أعرفه ظهر على شـــاشـــة هاتفي الجوال، حدقت قليلا، قلت هو البدوي او الحائك، لا أنتظر أرقاما غريبة أخرى. ألصـــقت الجوال على أذني حتى لا يتســـرب من المكالمة حرف واحد. جاء صـــوته الســـعيد الممزوج برمال الذهب وســـماء الصـــحراء، ســـألني بعد الســـلام والســـؤال عن الحال: عندك ذيل حصـــان؟ لم أفهم، داخلني شـــك في المتصـــل، يســـألني عن ذيل حصان. رغبت أن أتحقق منه فقلت له ماذا؟ قال: ذيل حصان، ذيل حصان يا أخي، عندك ذيل حصان؟ سألت: أأنت صانع الربابات؟ قال: نعم، أنا البدوي الذي أصنع الربابات، سأصنع لك الربابة لكني أفتقر إلى الشَّـــعْر حاليا. زادني هذا البدوي غموضـــا وحيرة، شـــعْر وذيل حصـــــان؟ قلت لـه: ما دخل الربابة في الشّـــعْر وفي ذيل الحصـــــان؟ أم تراك من المازحين؟ فهمت منه أنه جاد وما كان من المازحين لكنه يحتاج شعْرا من شعرات ذيل الحصان يصنع منه وتر الربابة وقوسها.

قلت لـه وقد خجلت من ضـــــياعي أمامه: دعني أشـــــكر اهتمامك أولا، ثم تقبل امتناني لحلمك وسعة صدرك وصبرك على جهلي بالربابات وذيول الأحصـــــنة، وأخيرا فأنا تحت أمرك، ما دام ذيل الحصان موجود في المدينة الكبيرة فهي قريبة في متناول أيدينا. أخبرتـه عن مشـــواري القادم للمدينـة فطلب مرافقتي. قبلت ذلك وســـررت به جدا، قلت له: قد نحتاج لمبيت ليلة أو أكثر وســـتكون تحت ضـــــيافتي هناك مهما كانت إقامتنا. كان الرجل كريما يعرف

حاجات الكرام، قال لي: سلمت ودمت كريما، أنا سأخدمك أيضا هناك، ستكون ربابتي معي وسوف أعلمك عليها خلال إقامتنا هناك. لم يبق لي إلا مكالمة منتظرة من الحائك، أنتظرها كي أرتب معه أمر الثوب ثم أسافر، وربما طلب الحائك شيئا نجلبه معنا من المدينة الكبيرة وربما عنّ له أن يكون ثالثنا في رحلة ذيل الحصان تلك.

لم يطل بي الانتظار كثيرا حتى هاتفني الحائك. كان صوته خافتا يتتبع الحروف تتبعا حتى لا تضيع منه، بان عليه الوهن والتقدم في السن، فاتحني معتذرا عن تنفيذ طلبي متأسفا لذلك. قال وهو يشرح السبب: أنّ الخام المطلوب قد نفذ من تحته يده قبل عقد من الزمان واختفى أيضا من السوق. الدوت الكتّاني خشن الملمس ولم يعد يناسب حتى الموتى، لذلك لا أحد يجده في أسواق مدينتنا، ولا في المدن الصغيرة المجاورة، لم يعد يباع إلا في المدينة الكبيرة. قلت له: أفهم الآن يا والدي أن القماش هو السبب، قال: نعم. قلت له: أنا مسافر غدا للمدينة الكبيرة وليتك تكون رفيقي، اعتذر بلطف عن السفر، اعتذر ولم ينس أن يدلني على مظنّة العثور على ذلك القماش بل دلني أيضا على أفضل ماركة في قماش الدوت الكتّاني.

اتضحت الرؤية الان. سيكون السفر غدا أما الأوبة فإن لها شأن آخر، قد نمكث يوما أو يومين او أكثر من ذلك. هاتفت صديقي البدوي صانع الربابات، أخبرته عن الموعد ولم أنس تذكيره ربابته. أغلقت المكالمة مع صديقي البدوي ثم هاتفت فندقا أعرفه في

وسـط المدينة، حجزت ليلتين قد تطول وقد تقصـر. هاتفت صـديقا آخر من أهل المدينـة الكبيرة تزودت منـه ببعض المعلومـات التي احتاجها هناك.

أحضـــرت ورقة وكتبت فيها خطة الســـفر، ما خرجت من داري يوما دون خطة مكتوبة حتى لو كان مشوارا لسوق الخضـار. دوّنت خطوات الطريق. حصـرت الحاجيات التي يتعيّن عليّ جمعها من أســواق المدينة الكبيرة، ومن اصـــطبلاتها الكثيرة، ومن دكاكين أهل الحرفة والصناعة هناك. لم أنس دورة الربابة بطبيعة الحال، ولم أنس حاجيات صديقي البدوي ثم خطوات الإياب أخيرا.

يومان في خطة الإقامة تحولت إلى خمسـة أيام على أرض الواقع، خمسة أيام مرت عليّ مثل حلم هانئ سعيد. قال لي صديقي البدوي صانع الربابات: تغلبت علينا شوارع المدينة فطوحت بخطتنا، شـــوارع طويلة متشـــابكة مزدحمة لذلك أقمنا خمســـة أيام بدلا من يومين. قلت: وتباعد حاجياتنا أيضـا، لا تنسـى أن حاجياتنا لم تكن ملمومـة في بقعـة واحـدة أو في جهـة واحـدة، من كـان يـدري أن اصـطبلات الخيل في ضـاحية المدينة؟ وأن الضـاحية احتاجت منّا سفرا آخر لا يقل عن سفرنا الأول، طريقنا للضاحية لم يكن لينقص عن طريق مدينتنا الا قليلا. كنت أنا من كسب تلك الأيام الخمسـة، تعلمت فيها العزف على الربابة بل أتقنت ذلك جيدا، أما صـــديقي البدوي فقد كسب عقالا من القصب الحر، أعجبه العقال فاشتراه رغم ارتفاع ثمنه.

عدنا إلى مدينتنا الهادئة، أوصلت صديقي البدوي بعد أن أصر على عدم البقاء معي، أنزلته عند باب داره العامرة على أطراف الصحراء، ناولته الوعاء الذي فيه شعر ذيل الحصان، ثم ناولته ربابته الأثيرة لكنه أوصى بتركها عندي. فرحت بمبادرته لمواصلة التدرّب عليها، ودعته امام بيته وقفلت عائدا إلى بيتي في قلب المدينة.

في البيت راجعت مشترياتي. أخرجت الأوعية وعاء بعد الآخر، أخرجت الوعاء الذي فيه حذاء الحكواتي، حذاء من الجلد تدخل فيه القدم ثم تجد ألسنة طويلة تخرج من طرفيها، تلتف فوق بعضها حول الساق. أخرجت لفّة قماش من الكتّان، قرأت على وجهها عبارة "معامل حلوان للنسيج" رأيت عليها رسمة لعربة فرعونية. وفي أدنى الوجه كتبوا: صناعة مصرية. قلت لنفسي هذه لثوب الحكواتي ولسوف أحملها للحائك غدا كي يشرع في خياطتها.

استدنيت وعاء فيه عمامة. أخرجتها من الوعاء ثم نشرتها بين يديّ، راق لي ذلك الملمس الناعم للعمامة مع أنها من الصوف وهو خشن. انبهرت من تلك الزخارف البارزة في أركان العمامة وفي مركزها، لاحظت أنها زخارف من خيوط داكنة مطرزة على سطح العمامة وعجبت كيف جعلوا من الألوان الداكنة جمالا أخّاذا بهذه الطريقة.

أخرجت أيضا وعاء فيه عِقال الحكواتي. قلبتُه في يدي، دققت النظر في صناعته، أخَذَتْ تلك الخطوط الذهبية بمجامع

قلبي، ارتاحت نفسي لشكله الهندسي. نهضت من مكاني وهو والعمامة في يدي حتى وقفت أمام المرآة، مكنّتهما فوق رأسي، نظرت فرأيت سلطانا من السلاطين أو وجيها أو ثريّاً أو شاعرا أو راقصا في عرضة أو حكواتيا في أزمنة المدينة التي مضت. عدت إلى مكاني، نزعت العقال والعمامة وأودعت كلا منهما في وعائه.

حملت لفّة القماش مع بداية النهار وانطلقت نحو الحائك، انطلقت إليه بعد مكالمة عبر فيها عن سعادته بالدوت الكتّاني. كان بيته على مقربة من بيتي لذلك كانت طريقي إليه ميسّرة سريعة. وجدته على الباب ينتظرني، رأيته رجلا مسنّا لكنه ممشوق القوام لا يتوكأ على عصا ولم يحدودب ظهره، كان الوهن في صوته فقط وربما كان طبعا فيه.

سلمت عليه وناولته لفّة القماش. تناوله من يدي ثم شرع يشمّه كأنما يشم وردة. استمر يحضن القماش ويشمه بل ويقبّله أيضا. قال لي وكأنه يحضن عزيزا طال غيابه: أدركت هذا القماش وهو ملبوس الأكابر. عشت حتى أصبح ملبوس الفقراء، تكبّر عليه الفقراء بعد حين فأصبحنا نتخذ منه السراويل، لانت جلود الأحياء فتركوه للموتى. جعلوه أكفانا لموتاهم، والان ها هم الموتى بدورهم قد ضاقوا به ذرعاً.

عدت إلى بيتي وصورة ذلك الحائك العجوز لا تبرح خيالي، مشهده منتصبا أمام الباب يقبل القماش، تعلقه العجيب بالدوت الكتّاني وذلك التتبع التاريخي للعلاقة بينا وبين الدوت. عندما

وصلت إلى بيتي دخلت. مشيت على وجه السرعة، قصدت مكتبي فدخلته، أحضرت ورقة ومسطرة وقلما وشرعت أدون فيها خطتي.

رأيت أن أمامي عدة أمور تتطلب قلبا ذكورا. أنتظر الربابة من صديقي البدوي صانع الربابات، أنتظر الثوب ذا الأكمام أيضا، أنتظر التقاط صورة للحكواتي في كامل زينته لتظهر الصورة في إعلانات الافتتاح وفي سائر البروشورات. أنتظر بروفة للعرض الأول، أنتظر العرض الأول بشحمه ولحمه.

هذه المنتظرات الخمسة وضعتها في قائمة مرتبة باليوم والتاريخ والساعة. أتممت تدوينها على ظهر الورقة ووضعتها جانبا، رفعت اللوح الزجاجي الذي يجثم على سطح مكتبي ثم مررتُ الورقة تحته.

وَصَلَتْ الربابة خشبا وجلدا وشَعْرا. وصلت جرما ووترا وقوسا، وصلت وكأنما الحكواتي في قلبها سيخرج عند أول جلا، جلا يسمعها. وصلت فاشتعل البيت عزفا.

سحبت القوس الذي أضناه الحنين إلى وتر ينتظره. اهتز الشَّعْرُ شِعْراُ، أزهرت الربابة وأثمرت واستدار الكون على عزيفها. رفعت عقيرتي بغناء الحكواتي: يقول الزير أبو ليلى المهلهل وقلب الزير قاسي ما يلين، أنا وان لان قلبي فقلبي من حديد القاسيينا.

أوقفني جرس هاتفي الجوال عند حدي، ولعله قد سمع مني نشازا أو أزعجه صوتي. سارعت للرد، حملت الهاتف وأغلقت به كامل أذني اليمنى، كان الحائك العجوز على الطرف الآخر، طلب

مني سرعة الحضور لإجراء التجربة الأخيرة على الثوب. فرحت بما سمعت، فرحت لأن الثوب في مراحله الأخيرة، زاد في فرحي أنني سألقى صديقي الرجل الوفي للدُوت الكتاني الجميل.

كنت سأقول له وهو يعاين الثوب على جسمي هذا يكفي. رأيته مكتملا لا نقص فيه، لكن الخيّاط يرى ما لا يرى الزبون، كانت له ملاحظاته على الطول وعلى الاتساع ولذلك طلب مني خلع الثوب وتركه عنده. خلعت الثوب ولبست ملابسي وخرجت. في المساء كان الثوب عندي، لبسته وطفت به قليلا، له أكمام واسعة في كل كمّ ذؤابة طويله، يأخذ شكل جسمي من بداية أكتافي حتى جذعي ثم يتسع بعد ذلك. يتسع الثوب حتى يبلغ أقصى اتساع له عند أسفله، يتسع كثيرا عند أقدامي ليصبح دائرة واسعة مثل جلابية مَوْلَوِي في مدينة قونية التركية يدور حول نفسه. ذهبت والثوب فوق جسمي نحو المرآه، رأيته ثوبا جميلا، استدرت ذات اليمين وذات الشمال، قلت في نفسي: كيف تنازلنا بهذه السهولة عن نمط جميل من ثيابنا؟.

هاتفت مالك المقهى. أعطيته تفاصيل ما كان، حذاء الحكواتي، والثوب ذو الأكمام، وعمامة الصوف المطرزة بالحرير، والعقال الموشّى بالقصب. حدثته عن الربابة وعن دورة العزف وعن ذيل الحصان. أبدى المالك غبطته وكان متفائلا بي، فوجئ بمسألة ذيل الحصان مثلما فوجئت أنا، تحدّث عن المشروع وعن مشاريع

أخرى لم يدخل في تفاصـــيلها، قال أنّه يترك الحديث حولها للأيام القادمة.

شــاركته التفاؤل وقاســمته الغبطة. أشــرت إلى اســتعدادي للإســهام قدر ما أســتطيع في مشــاريع المقهى القادمة. بذلت غاية الجهد في مشــروع الحكواتي، جمعت وحفظت وشــرّقت وغرّبت من أجله وعندي المزيد للمشــاريع القادمة. ذكّرته بالصــور الفوتوغرافية المطلوبة للدعاية والإعلان وسائر النشرات والملصقات، أرشدني إلى مصــوّر يتعامل معه، قال أنّ ذلك المصــور بارع جدا ومتمرس في اللقطات الدعائية وفوق ذلك فقد دفع له أتعابه مقدما.

لبســت ملابســي كما يلبس المحارب لامته. الحذاء والثوب والعمامة والعقال، حملت الربابة في يدي كما يفعل الحكواتي، وقفت لثواني بسيطة أمام المرآة تفقدت فيها الشكل العام بسرعة ثم خرجت.

خرجت من بيتي في طريقي إلى اسـتوديو التصـوير. ركبت سيارتي ومشيت، مشيت إلى أن وقفت أمام المكان، وجدت المصوّر هناك في انتظاري. رحّب بي كثيرا ودار حولي مرتين، أبدى اعجابه بهذا الزي التاريخي ثم دخلت معه إلى داخل الاستوديو.

التقط صـورا كثيرة في أوضـاع مختلفة، بعض الصـور ثابتة وبعضها متحركة. انتهينا وقبل أن أغادر ذكّرني بموعد البروفة، قلت له: هل ستحضر؟ قال: نعم، وسوف أصور البروفة كاملة، أحتاجها في المقاطع الدعائية التي ستبث فضائيا. سمعت ذلك وخرجت.

هاتفني صاحب المقهى. قال لي شاهد قناة عنادل العرب، قالها وأنهينا المكالمة لأرى. بحثت عن القناة فوجدتها بعد لأي، ما إن رأيتها حتى قلت: الله أكبر. ماكنت أحب هذه القناة، لكثرة ما تعلن عن المقويات والمنشطات، لكني من الآن لن اشاهد سواها. أغض الطرف عن إعلاناتهم تلك لأرى عقالي وعمامتي وثوبي ورربابتي.

كانت إعلانات المقهى تترى. إعلان يتبعه إعلان، الحكواتي يذرع الشاشة يمينا وشمالا، الربابة تئن أنين الحزانى، تارة في يدي وتارة من غير يد تمسكها. لا يقطع إعلانات المقهى سوى إعلان المنشطات، ثم لقاءات مع زبائن القهوة الذين جاء بهم صاحب المقهى. استأجر صاحب المقهى جمهورا عريضا من العاطلين عن العمل للحديث عن المقهى وعن خدمات المقهى. قلت لنفسي: لو كان للمقهى مثل هذا العدد ما احتاج لربابة ولا لحكواتي ولا لقناة عنادل العرب.

اليوم هو موعد التجربة النهائية للفكرة. بروفة كاملة كما قال صاحب المقهى. اختاروا الموعد ليأتي بعد منتصف الليل، قالوا هذا وقت توشك فيه حركة الشارع أن تتوقف، لو جاءت التجربة مبكرة فلن نأمن فوضى الناس وتكدسهم داخل المقهى.

قلت: لو سألوني لنصحتهم، بكّروا واكسبوا التجمهر. ذهبت للمقهى متقدما عن الوقت، دخلته من الباب الخلفي. هالني ما رأيت بعد أن فاجأني. كانت الخلفية بارتفاعها الهائل تحمل صورة الزير

سالم، صورته وهو يضع قِرب الماء على ظهر الأسد. هذه الصورة هي ذاتها التي نراها على غلاف الكتاب المتداول بين الناس. تأملت الصورة فإذا بها بسيطة جدا وبدائية أيضا، حتى مقاساتها وأبعادها لا تبتعد بها كثيرا عن محاولات الطلاب، محاولاتهم تحت عصا المعلم في حصة الرسم، لكنها وللحق كانت تبعث ذبذبات من السحر والفتنة يراها عامة الناس وخاصتهم.

لم أكن وحدي في هذا المكان شاركني فيه مهندسو الصوت ومهندسو الإضاءة. لا يستطيع مثلي أن يميز بين منسوبي الوكالة الإعلانية ومنسوبي قناة عنادل العرب، كل في شغل يسبحون. جاءني شخص من بينهم وأخذ بيدي، تبعته حتى أوصلني إلى مقعد كأنه عرش ملك زادت من مهابته تلك المصابيح العملاقة المسلطة عليه من كل مكان. استويت على العرش وتصرفت عليه بحرية كما أمر. أمضيت على هذه الحالة ساعة أو تزيد قبل أن يطلق سراحي. عدت بعدها لأجد هناك من ينتظرني. وجدت مسؤول الملابس والإكسسوار ينتظر فراغي، تفقد ملابسي قطعة بعد أخرى، عدّل وضع العقال قليلا ثم قال: ستخلع الان العقال والعمامة من أجل الماكياج ثم تعود إليهما بعد الماكياج وسوف أكون معك. غادر المكان ولم أكمل بعد قولي له: الله معي ومعك. غادر وخلال ثلاث دقائق جاء الماكيير يسعى.

أجلسني على مقعد جاء به معه يحمله مساعده. نصب حولي عدة مرايا على قوائم راسخة. وضع مَطْخَة من كريم أبيض

على خدّي الأيمن ومثلها على الأيســـر وعلى جبيني وعند أســـفل ذقني ثم انهمك في فركها. فرك وجهي فركا حتى أحســـســـته يكاد يشتعل نارا ثم غاب. غاب عني وتركني بين تلك المرايا يلمع وجهي على صفحاتها وكأنما صبّوا عليه زيتا. المرايا تتفرج عليّ ضاحكة، أنى وجهّت وجهي كانت هناك مرآة تضحك. عاد الماكيير وقد تيبس وجهي حتى صار حجرا، ثم شرع يرسم عليه وكأنه يرسم على قطعة من الكانفاس. وضـــع لمســـاته على حاجبيّ حتى بدا لي وكأنه رد ساعة عمري للوراء بضع سنين. عدّل قليلا من وضع شاربي ثم ركّب لي لحية بدت وكأنها لحية شكسبير ثم طلب مني السكون ربع ساعة فقط أتحرك بعدها كيفما شئت.

جاءني مصـــمم الملابس يســـعى، أشـــاد بحســـن اختياري لملابسي تلك لكنه قال أنّ لديه بعض الأفكار الضرورية. أضاف لي حزاما من الجلد وأضاف للربابة معلاقا من الجلد نفسه، قال أنّ هذا المعلاق يتوازن مع الحزام ويؤمن الربابة من السقوط.

تفقد الحذاء وتأمل الثوب والحزام. استدنى العمامة، وضعها على رأســي، اســتغرق فترة طويلة يوازن بين ذؤابتيها حتى راقت له. مكّن العقال المقصب فوقها، استغرق في تمكينه وقتا مماثلا، اطمأن على الحال ثم أخذ بيدي. أمرني بالبطء في سيري فسرت معه ببطء شديد كما أمر لكني ضحكت طويلا في داخلي. لم أعد حكواتيا في هذه اللحظة بل عروس تقاد بيدها نحو مخدع الزوجية!

أوصـــلني إلى عرش الحكواتي المهيب ثم قال قف هنا. أمرني بالبقاء واقفا إلى أن يأتي مهندس الصوت، قال لي: لا تقلق، قالها ثم مضى.

جاء ومعه مهندس الصــوت ورجل الماكياج وثلاثة آخرون. تحلقوا حولي جميعا، أحاطوا بي إحاطة الأطباء بمريض من ذوي الجاه والسلطان. تقدم نحوي مهندس الصوت، استأذن في تركيب السلك، رفع ثوبي من أسفل ثم أولج سلكا. أخذ يتتبع السلك بيسراه من خارج الثوب حتى بان من أعلى الثوب عند فتحة العنق. علقه بمشــبك هناك ونبهني إليه، قال هذا لا قط صــوت حســاس يلتقط الصوت من بعيد ولن يعمل إلا مع البداية تماما.

ذكرني المخرج بالبداية التي اتفقنا عليها ثم دعاني للجلوس. جلست على العرش بينما انصرفوا عني. أدركت ساعتها أن الموعد قد أزف، أســـندت ظهري تحت إبهار المصـــابيح التي كانت مثل الشموس، تحدق نحوي دون أن يغمض لها جفن. داخلني شك تحت تلك الأنوار أن يكون هذا حلم او أن تكون ليلة القدر وأنا لا أدري.

توتّر قوس الرامي وحمي الوطيس. بلغت القلوب الحناجر وصمت كل ذي صوت. جاءتني إشارة المخرج فانطلقت. سحبت قوس الربابة حتى أســمعت قلبي أنين الوتر. تواصـــل أنين الربابة شــجيّا، دخلت معها في اتحاد صــوتي ثم تفرد صــوتي قليلا: يقول الزير أبو ليلى المهلهل. شــاركتني الربابة الصــوت ثم غنيت: وقلب الزير قاسـي ما يلين. تداخلت معي الربابة وكأنها تحفظ ما أحفظ ثم

غنيت لوحدي: أنا وان لان قلبي. مرّرت لي الربابة صوتا لفراغ كان، ثم غنيت وغنت معي: فقلبي من حديد القاسيينا.

تنفس الحكي من رئة الغناء فقلت: قال الراوي: يا ســـادة يا كرام يا أفاضـل الأنام. هذه سـيرة الكرار والبطل المغوار الذي شـاع ذكره في الأقطار وأذل بســـيفه كل عنيد وجبّار. المهلهل بن ربيعة، صـاحب الأشـعار البديعة والوقائع المهولة المريعة، وما جرى له في تلك الأيام من الحوادث والوقائع التي تطرب القارئ وتلذ السامع.

مضـــت ليلة التجربة على أحســـن ما تمضـــي به الليالي. استهلت وحيها بالربابة والغناء، اشتعلت بالحكي واشتعل الحكي بها، كانت في مقام شهر من البهاء وإن لم تك خير من ألف شهر.

عنـدمـا انتهـت التجربـة تكـاثروا حولي. جـاءني المخرج ومعاونه، جاءني مصـــمم الملابس ورفاقه، جاءني رجل الماكياج ومســاعده، جاء مهندســو الصــوت والاضــاءة ورجال لا أعرفهم، جاءني صاحب المقهى قبلهم وبعدهم.

تبادلنا التهنئة، تطارحنا الأحلام، تعاهدنا على الاســـتمرار. رأينا أن هذا النجاح ليس غاية اجتهادنا بل هو اختبار صـبرنا. ألقى صـاحب المقهى خطبة ضـافية، امتدح فيها أداءنا، وأشـاد بتكاتفنا، ولمّح بذكاء إلى بعض مشـاريع المقهى في المسـتقبل. أخرج بعدئذ رزمة شيكات لكل واحد منا شيكا.

تفاعل المخرج مع الشـيكات، وقف وشـكر صـاحب المقهى، قال أنّ هذا بذل الرجال البناة الذين تتخلق على أيديهم أنفاس الحياة.

اليوم هو يوم المحك. ليلة البارحة كانت ليلة التجربة، نجحتْ ليلة البارحة فهل تنجح ليلتنا هذه؟ خرجت من بيتي مبكرا وذهبت بكل عدتي وأحلامي إلى المقهى. دخلته من باب خلفي فقد كان الباب الرئيس مغلقا، أوصـــدوه بلوحة إعلان كبيرة. كتبوا في الإعلان: مقهى العنادل يعيد الحياة للحكواتي. كتبوا في زاوية أخرى من الإعلان: الليلة أنت على موعد مع الحكواتي.

بالنسبة لي لا جديد في مسألة الحكواتي تلك. الحكواتي هو أنا، وأنا أعرف الأمر جيدا. الجديد عندي والمذهل معا هو اســـم المقهى، مقهى العنادل. اسم لم أسمع به من قبل، أنا زبون للمقهى منذ سنوات، قبل أن أتعاقد معهم حكواتيا للمقهى ولم اسمع بمقهى العنادل. حتى العقد نفســـه لم ترد فيه كلمة العنادل، لكن القناة التي تتفانى في خدمة المقهى إعلاميا هي قناة العنادل، هل من صلة بين مقهى العنادل وقناة العنادل؟

كان المخرج هو أول الداخلين بعدي، جاء إليّ مسرعا، قال لي بأنّ الحكواتي سيبدأ عند التاسعة، يبدأ بمن حضر. كل ما سوف تقوله قمنا بتسجيله ليلة البارحة وسوف نعيد تشغيله الليلة على أن تتحرك وتحرك لسانك وشفتيك من غير كلام.

عقدت الدهشة لساني، لأننا لم نتفق على ذلك. والأهم من ذلك جهلي بمثل هذا الأسلوب، كيف سأتصرف؟ وهل أنجح في مسايرة التسجيل؟ قلت له: قد لا أقدر على مسايرة آلة التسجيل.

قال: روض نفسك، حتى الإضاءة وجميع المؤثرات ستعمل تلقائيا فقد تم ضبطها سلفا، هذا عصر الأتمتة يا صديقي.

لن تجد هنا أحدا سواك. حتى رجلي الماكياج والملابس لن يطيلا المكوث معك، مجرد وقفة اطمئنان ومعاينة سريعة ثم تبقى وحيدا. خرج المخرج وبقيت أنا أصارع قلق المجهول. سأقبل في نهاية المطاف بالفكرة ولكنها مجازفة، هكذا من غير تدريب؟ هي حقا مجازفة.

نظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى السابعة، قلت أمامي ساعتان سأتفاهم فيها مع صاحب المقهى. هاتفته فجاءني صوته متقطعا، أخبرته بما قال المخرج، قلت له أيضا: هكذا من غير تدريب؟ خذوه فغلوه؟ يا سيدي قد لا أستطيع مسايرة آلة التسجيل فأُخْفِق ويخفق المقهى معي.

رد عليّ ردا غريبا سأموت ولم أفهم دلالته بعد. قال لي: ألم تقبض أتعابك بالأمس؟ قلت له: بلى. قال: إذن في مقدورك أن تحمل أمتعتك وتغادر الآن إذا رغبت!.

بكلامه الغريب هذا كان وكأنه قد فتح فمي وملأه ترابا. قلت له: أريد تنفيذ العرض، هذا اتفاقي معك. قال منتصرا: ما دمت تريد تنفيذ العرض فاستمع لكلام المخرج فقط. قلت: حاضر وأنهيت المكالمة.

أنهيتها على وقع هذه التغيرات التي لم أفهمها. مقهى العنادل وقناة العنادل، الصوت من غير صورة والصورة من غير

صــوت، لك أن تذهب الان ولك أن تســمع كلام المخرج، عونك يا ألله على فهم هذه الطلاسم.

أبواب المقهى مشــرعة منذ ســاعتين ولم يدخل أحد ســوى المخرج ورجلي الملابس والمـاكيـاج وأنـا. هـا نحن الان في ربع الســـاعة الأخير ولم يأت أحد. الجماهير هم علّة وجودي هنا، لم يدخل زبون واحد على الإطلاق، الوقت يمضـــي ولا أحد، عشـــر دقائق خمس دقائق ولا أحد. تحركت من مكاني وجلست على عرش الحكواتي ولا أحد، حتى صاحب المقهى لم يحضر.

دارت الأجهزة، ســحبت القوس في نفس اللحظة مع صــوت الآلة، كنت والآلة نعمل بتناســق مُعْجِز، اشــتغلتْ الآلة صــوتا واشــتغلتُ صــورة. مجرد صــورة أتحرك وأحرك لســاني وشــفتاي كالمجنون، أحرك لســاني وشــفتاي للهواء، الهواء الذي يملأ قاعة خلت من الناس.

تمردت على السخف. غادرت المسرح والربابة تئن من غير قوس. غادرته بقامة مرتفعة، خرجت من المقدمة وليس من وراء الكواليس. غادرت وتركت آلات التســجيل الماهرة تكمل العرض للهواء.

المحتويات

م	المحتوى	الصفحة
١	الاهداء	٣
٢	غرفة الجبصين	٥
٣	ليلة القبض على شيطاني	٢١
٤	أراك ولا تراني	٣٧
٥	النملة والسكر	٤٩
٦	أثاث الربابة	٦٥
٧	المحتويات	٩١

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١١٧٨٣ ردمك: ٠-٠٥١٢٠-٠٥-٦٠٣-٩٧٨